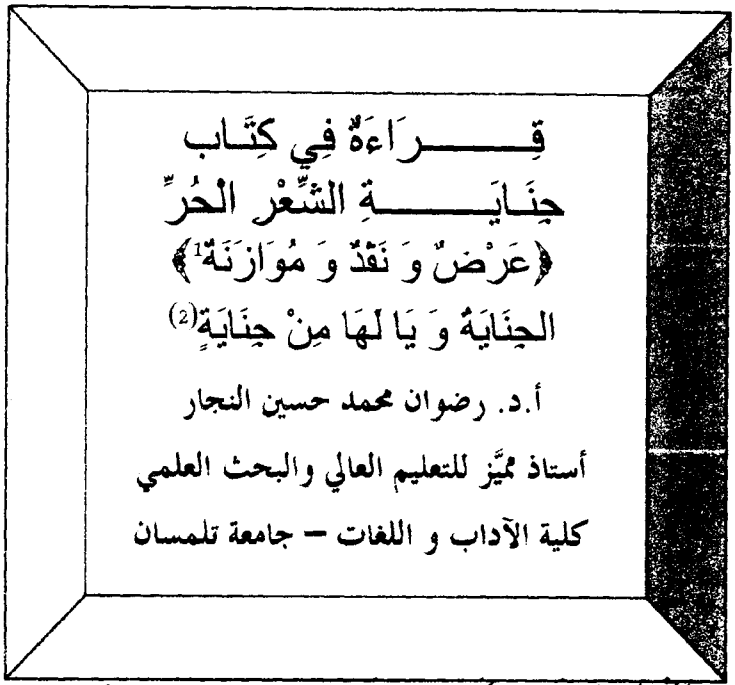

قِـــــــرَاءَةٌ فِي كِتَـاب
جِنَـايَـــــــةِ الشِّعْرِ الحُرِّ
﴿عَرْضٌ وَ نَقْدٌ وَ مُوَازَنَةٌ[1]﴾
الجِنَايَةُ وَ يَا لَهَا مِنْ جِنَايَةٍ[2]

أ.د. رضوان محمد حسين النجار
أستاذ مميَّز للتعليم العالي والبحث العلمي
كلية الآداب و اللغات – جامعة تلمسان

... تأمَّلتُ المكتبة العربيَّة فوقعَ نَظري على كتابٍ ظهرتْ عليه كلمةُ جناية ، فَصَرَفْتُ النَّظَرَ عنه لعدمِ رغبتي قراءةُ كُتُبِ الجناياتِ ،و ما يُماثلهَا من القَصَصِ الغرامية و البوليسيّة.

و لكنَّ هذه المرَّةَ رأيتُ نَظَري يُعَاوِدُ التَّأمُّلَ ثانيةً في هذا الكتابِ ، فمدَدْتُ يَدي – و أنا مُتَرَدِّدٌ وَجِلٌ – لأسُلَّ الكتابَ من بين مِئَاتِ الكُتُبِ.

و إذْ – و لله الحمدُ – بجناية هذا الكتابِ تختلفُ عن كلِّ الجناياتِ ؛ إنَّهَا جنايةٌ من نوعٍ فريدٍ لم يَسْبِقْ لِيَ الاطلاعُ على مثلِهَا.

جنايةٌ يحقُّ بلْ يجبُ على كُلِّ عربيٍّ أديبٍ ، و على كلِّ مسلمٍ أَريبٍ أن يقرأَهَا بلْ يَعِيَهَا و يَحْفَظَهَا.

إنّها : "جِنَايةُ الشِّعْرِ الْحُرِّ". هذا هو عنوانُ كتابِ هذه القراءة.

و قدْ طُبِعَ من قبلُ بمطابعِ دارِ المعارفِ بالقاهرةِ في طبعته الأولى[3].

يقعُ الكتابُ في خمسَ عشرةَ و مائةِ صفْحَةٍ من الحجمِ المُتوسِّطِ ، أثبتَ النَّاشرُ كلمتَهُ بعدَها على ظهر غلافِ الكتاب.

فقال بعنوان : هذا الكتابُ. لم يتعرَّضِ الشِّعْرُ – منذُ ظهرَ كأَعْظَمِ وسيلةٍ أدبيةٍ للتعبيرِ عنِ الوجدانِ – لمحنةٍ كالّتي تعرَّضَ لها الشِّعْرُ العربيُّ في العصرِ الحديثِ.

لقد تغالى بعضُ الشُّعَراءِ في الهجَاءِ ، و أَغْرَقَ البعَضُ الآخرَ في الوصفِ ... إلى غيرِ ذلكَ مما يُؤْخَذُ على بعضِ الشُّعراءِ في مختلف العصور. و لكنَّ شعرَ هؤلاءِ جميعاً كانَ شعراً بمعنى الكلمة.

و لكنَّ الشعرَ الحديثَ[4] – الذي ليسَ بشعرٍ و لا بنثر – سرطانٌ خبيثٌ تسرَّبَ إلى الأدبِ العربي في منتصفِ هذا القرنِ ، على يَدِ جماعةٍ زَعَمُوا أَنَّهُمْ مُجَدِّدُونَ بينما هُم جُنَاةٌ علَى الشِّعْرِ و الأدب.

و قد انبرى مُؤَلِّفُ هذا الكتابِ بشجاعةٍ لنَقْدِ هؤلاءِ "الْمُجَدِّدينَ" و إظهارِ ما في شعرِهم من سَلْبِيَّاتٍ ، كما تَعَرَّضَ لِذِكْرِ بعضِ الجهودِ التي بُذِلَتْ لِهَدْمِ لغة الضّادِ ، و تشويهِ أدبِهَا بينَ عَجْزِ عُلَمَائِهَا و جهْلِ بعض أبنَائِهَا.

فالكتابُ بحقٍّ ضَرْبَةٌ قاصمةٌ لكلِّ أعداءِ اللُّغَةِ و الدِّينِ.

أمَّا المؤلِّفُ فقد أهدى كتابه :

"إلى كُلِّ أديبٍ يؤمنُ باللهِ،
وَ يَغَـــارُ علـــى القُرآنِ ،
و يَعْتَـــزُّ بلُغَةِ العَـــرَبِ ،
وَ يَتَبَنَّى مكارمَ الأخـــلاقِ".

وَ قَدْ أَهْدَانِي الْمُؤَلِّفُ مَشْكُوراً نُسْخَةً مِنْ هَذَا الكتاب ، قالَ فيهاَ : "هَدِيَّةٌ مَعَ التَّحيَّةِ مَعَ التَّحيَّةِ و التَّقْدِيرِ إلى الأخِ الأَديبِ الْعَالِمِ د. رضوان محمد حسين النجار حَرَسَهُ اللهُ"

وَ ذَيَّلَهَا بِتَوْقِيعِهِ الكريمِ ، مُؤَرِّخاً فِي الثَّالِثِ وَ العَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ ، الموافقِ لِسَنَةِ ثلاث بعدَ أَرْبَعْمائَةٍ و ألفٍ من هجرَةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الأمينِ صَلَوَاتُ اللهِ عليهِ وَ أَزْكَى التَّسْلِيمِ.

أَحْسَسْتُ فِي هذا الإهداءِ و كأنَّ المؤلِّفَ يعنيني كواحدٍ من الأمةِ العربيةِ الإسلاميةِ الماجدةِ. مِمَّا أراحَ نَفْسِي ، وَ طَمْأَنَ قَلْبِي ، و شدَّ انْتِبَاهِي ، و أجرَى لِسَانِي ، و دفَعَنِي للنَّظَرِ فِي الصَّفْحَةِ المُقَابِلَةِ للإهْدَاءِ.

و إذْ بمؤلِّفِ الكتابِ شاعرٌ من شعراءِ العربيةِ الفحولِ، هو الشَّاعِرُ أَحْمَدُ بن فَرَح آل عُقَيْلاَنَ.

دَلَّنِي على فُحُولَتِهِ أَنَّهُ لم يرضَ لنفسهِ الشَّاعِرَ المتفرِّجَ من المعركةِ الأدبيةِ ، بل قَذَفَ بِنَفْسِهِ فِي أَتُونِهَا ، و خَاضَ غِمَارَهَا و هي حاميةُ الوطيس. هذا ما يفيدُ القارئُ بادئَ ذي بدءٍ من تقديمِ الكتابِ و كلمةِ النَّاشِرِ و حروفِ الإهداءِ.

لَمْ يَبْقَ لِيَ الآنَ فيما يتعلَّقُ بشكلِ الكتابِ الخارجي ، و بأسلوبِ تنظيمه و تَنْسيقِهِ إلا أنْ أذكرَ أنَّ غِلاَفَهُ مُزَيَّنٌ بأربعةِ ألوانٍ ، قدْ كُتِبَتْ عبارةُ : جنايَةُ الشِّعْرِ الحُرِّ ، اثنتي عشرةَ مرَّةً بِلَوْنَيْنِ منها ، مِمَّا أَضْفَى على الكتابِ شكلاً جميلاً.

ذلك – أخي القارئ – مَا يَتَعَلَّقُ بالمنظرِ . فماذا عن المَخْبَرِ ؟

لا أَسْتَطيعُ ، و لا يستطيعُ أحدٌ أن يتحدَّثَ عن مخبرِ كتابٍ لم نقرأْهُ بَعْدُ ، دَعْنَا نَقْرَأْهُ متوكِّلينَ على اللهِ "وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنونَ"[5].

و أيضاً "و عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ"[6].

يقول المؤلّفُ في الصفحةِ الحاديةَ عشرةَ و هي بدايةُ الكتابِ ، و قد عَنْوَنَهَا الشَّاعرُ أحمدُ فرح عقيلان بعنوانِ : جنايةٌ[7] قاتلةٌ.

و كلمةُ (قاتلةٌ) ، لفتتَ انتباهي ، وَ كُنْتُ بَادئَ الأمرِ أظنُّ أنَّ الجنايةَ الأدبيَّةَ لا قَتْلَ فيهَا. وَ لْنَسْمَعْ إلى الشَّاعرِ عُقَيْلانَ و هو يقولُ :

"أَعْتَرِفُ أَنِّي أَكْتُبُ هَذِهِ الوَرَقَاتِ وَ أَنَا ثَائرٌ مُنْفَعِلٌ ، يكادُ يَسْطُو بيَ الكَمَدُ وَ يَكَادُ يَقْتُلُنِي الْغَضَبُ.

وَ كَيْفَ لا أغْضَبُ و الجنايَةُ قَدْ أَصَابَت المَقْتَلِ ، و الجُنَاةُ مُصَمِّمُونَ أَنْ يُجْهِزُوا عَلَى الضَّحِيَّةِ الزَّكِيَّةِ ، مُصِرُّونَ عَلَى المُضيِّ في تَخْطِيطِهِمِ الفَظِيعِ الظَّالِمِ بإملاءٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، و إيحاءٍ مِنَ الحَاقِدِينَ"

ثُمَّ يقولُ : "وَ كَلِمَةُ حَقٍّ لا بُدَّ مِنْهَا بِرُغْمِ أَنْفِ الْغَضَبِ ، و هي أَنَّ الجُنَاةَ مُخْلِصونَ لِبَاطِلِهِم إخلاصاً يَسْتَحِقُّ الإعْجَابَ ، مُتَحَمِّسُونَ للهَدْمِ حماسةً تتضاءلُ أَمَامَهَا حماسةُ إبليسَ للضَّلاَلِ.

إنَّهُمْ يَهْجُمونَ على أيِّ ناقدٍ يُعَارِضُهُمْ ، هَجْمَةَ الذِّئَابِ الشَّرِسَةِ الجائعةِ على القَطِيعِ"[8].

يعترفُ المؤلّفُ هُنَا بالغَلَبَةِ للخَصْمِ. و الاعترافُ بالغَلَبَةِ للعدوِّ موجودةٌ في تُرَاثِنَا الأدبيِّ العربيِّ الأصيلِ ، بَيْدَ أَنَّهَا تكونُ مِن خِلاَلِ الشِّعْرِ ، فهيَ سِمَةٌ من سماتِهِ تُدْعَى في النَّقْدِ الأدبيّ العربيّ بالمُنْصِفَاتِ[9].

و هذه السِّمَةُ (المُنْصِفَاتُ) تُعَدُّ سابقةً إبداعيَّةً للأديب عُقَيْلانَ. إذْ تَمَكَّنَ مِنْ تعميمِ هذهِ الظَّاهِرَةِ على النَّثْرِ الأدبيّ. و لا غرابَةَ في ذلك ، فالأديبُ شاعرٌ أصيلٌ ،

و للشَّاعرِ الأصيلِ قُدْرَةٌ أدبيَّةٌ إبداعيةٌ لا تتوفَّرَ لِغَيْرِه من صَعَاليكِ الأدبِ، وَ هُمْ كُثْرٌ في هذا العصرِ.

وَ عَوْدَةٌ إلى كلامِ المُؤلِّفِ لأَضُمَّ صَوْتِي إلى صوتِه و بخاصَّةٍ في قوله : "إنَّهم يَهْجُمونَ عَلَى أيِّ ناقدٍ يُعَارِضُهُم هَجْمَةَ الذِّئابِ الشَّرِسَةِ الجائعةِ على القَطِيعِ".

وَ يُدَعِّمُ المؤلِّفُ كلامَه بمثالٍ ، إلاَّ أنَّني ارْتَأَيْتُ تأخيرَ مثالِه ، و تقديمَ مِثَالِي ، لا للأَفْضَلِيَّةِ ، و لكنْ لأتَّخذَ مِنْ نَفْسِي عُرْضَةً للاستدراكِ قبلَ أن أجعلَ غَيْرِي في تلكَ الحالِ.

إنَّهم حَقًّا جُنَاةُ بَاطِلٍ ، و هذا يُذَكِّرُنِي بتلكَ الحملةِ الكاذِبَةِ المَسْعُورَةِ التي شَنَّهَا عَلَيَّ أَحدُ الصَّغَارِ من الجُنَاةِ المخلصين لباطلِهم ، لا لشيءٍ. إلاَّ لأَنَّني تَكَنَّمْتُ الحقَّ وَ هُمْ رافضوه، و فنّدتُ مزاعمَ الجُنَاةِ ، و دحَضْتُ أباطيلَهُم و ذلك خلالَ مناقَشَتِي لأطروحةٍ علميَّةٍ جرَتْ مُنَاقَشَتُهَا في إحدَى الجَامعَاتِ ، و إنَّني أُثْبِتُ هَذَا المِثَالَ للدِّلالةِ لا للْحَصْرِ، لتأكيدِ حقيقةٍ ، و تَدْعِيمِ قَوْلِ المُؤلِّفِ ، أمَّا المؤلِّفُ فقَدْ سَاقَ أنموذجاً آخر فقالَ :

"أَذْكُرُ على سَبِيلِ المِثالِ أسْلُوبَهُم العاقَّ في الهجومِ على أستاذِهم نازك الملائكة ... فلقَدْ كانتْ نَازكُ إلى عَهْدٍ قريبٍ في نَظَرِهم قدِّيسةَ الشِّعرِ الحُرِّ ؛ وَ رَائِدَةَ نُشُوئِه و ارتقَائِه ... لَكنَّ هَذِه الشَّاعِرَةَ أَدْرَكَتْ فيمَا بَعْدُ أنَّ آراءَهَا في الشِّعْرِ الحُرِّ ، فُهِمَتْ فَهْماً سَيِّئاً ، و جرَّتْ على الشِّعْرِ وَيْلاتٍ كبيرةٍ ، حتّى لقد استباحَهُ كُلُّ جَاهِلٍ ، وَ سَامَهُ كُلُّ مُفْلِسٍ ، و رَكَضَ في ساحَتِه كلُّ هَزِيلٍ. هُنَالِكَ أَرَادَتْ هذه الأستاذةُ أنْ تُكَفِّرَ عن سَيِّئَتِهَا بأيضاحِ بعض الحقائقِ ، و أصدرتْ كتابَهَا المعروفَ (قَضَايَاالشِّعْرِ المعاصرِ) تُعْلِنُ فيه أنَّ الوزْنَ أَمْرٌ لا يَسْتَغْنَى عَنْهُ الشِّعْرُ العربيُّ حتى الحرُّ منه ... و أنَّ كُلَّ ما صَدَرَ عَنْهَا مِنْ شِعْرٍ كانتْ تَفْعِيلاتٌ و أوزانٌ ملتزمةً ، إلاَّ أنَّها أَوْزانٌ لاَ تَتَقَيَّدُ ببحُورِ الخَلِيلِ.

هُنَالِكَ جُنّ جنونُ العصابَةِ المُتآمِرَةِ فَقَذَفُوا قدِّيستَهُم بأقذعِ الشّتائمِ وَ رَمَوْهَا بأخْطَرِ الجرائمِ)[10] حتى لقد وَصَفَ البيَّاتي كتَابَهَا بقَوْلِه : (كتابٌ تافهٌ مُتَهافتٌ يمتازُ بالتَّسَرُّعِ و السّطْحيَّةِ و الأحكامِ الميكانيكية) و يعني بالميكانيكيةِ الخاليةِ من العَقْلِ. و كَتَبَ يُوسُفُ الخَالِ مَقالاً في مجلّة (شعْرِ)[11] و هي تصدُرُ في بيروتَ ، و تَنْطُقُ بلسان عصابةِ الشّعرِ الحُرِّ ، يقول : (إنّ آراءَ نازكَ في كتابِهَا "قَضَايا الشِّعْرِ المُعَاصِرِ" هي آراءٌ ارتداديةٌ مُتَزَمِّتَةٌ ، خانَتْ بِهَا حَرَكَةَ الشِّعْرِ الحُرِّ التي تَدَّعي اكتشافَهَا) لقد بلغَ من حَمَاسَةِ يوسفَ الخالِ للشِّعْرِ الحُرِّ أنْ وصفَ نازكَ بالرِّدَّةِ و الخيَانَةِ))[12].

و يعودُ المُؤلِّفُ الشّاعرُ إلى إسنادِ الغَلَبَةِ لُخصُومِ الشِّعْرِ العربيِّ الأصيلِ ، مُعَبِّراً في الوقتِ نفسِه عَنِ الألَمِ الّذي يَحزُّ في نَفْسِه ، فيقولُ :

((و الأمْرُ الذي يَحزُّ في نَفسي هو أنَّهُ بمقْدارِ تألُّبِ هؤلاءِ المُبْطلينَ و حَمَاسَتِهم حَوْلَ بَاطِلِهِم ، كان تَصَدُّعُ صَفِّنَا مِنْ حَوْلِ حقِّنَا ، فَلَقَدْ سَخِرْنَا منهم أوَّلَ الأمرِ كَمَا سَخِرَتِ الأرنبُ مِنَ السُّلْحفاةِ ، لَكِنَّ السُّلْحفاةَ ظَلَّتْ جادَّةً أثْنَاءَ نَوْمِ الأرْنَبِ ، حَتَّى بَلَغَتْ نهايةَ الشَّوْطِ ، و ما زالَتِ الأرْنَبُ تَنْعُمُ بنَومٍ عميقٍ))[13].

ثم يقول (رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى) : ((نَعمْ لَقَدْ وَصَلَ دُعَاةُ التَّحْديدِ - كَمَا يَحْلُو لَهُمْ أنْ يُسَمُّوا أنْفُسَهُم - إلى أهْدافِهم المُخَرِّبَةِ ، فأتْخنُوا شعرنَا الأصيلَ الجميلَ ، و أفْقَدُوهُ شعبيَّتَهُ ، و صرَفُوا عنهُ عشَّاقَهُ ، و أطَاحُوا بمَجْدٍ أدبيٍّ شامخٍ ، شَعَّ مِنْ مَنَارَةِ شعرِنا الحبيبِ المؤدَّبِ الطّريفِ المُمْتِعِ مِنْ لَدُن ذِي الْقُرُوحِ ، وَ جَرْوَلَ عَبْرَ المُعَلَّقَاتِ و النَّقَائِضِ و الهَاشميَّات ، و الزُّهْديَّاتِ و الرُّوميَّاتِ و الحجَازِيَّاتِ ، و اللُّزُوميَاتِ و الشَّوْقيَّات ، و عَبْرَ الْعَبَاقِرَةِ الّذين يَضِنُّ بِهُمُ الزَّمَانُ ، و لا يَجُودُ بِهِم إلاّ في الحِقَبِ المُتَبَاعِدَةِ ، كَأَبِي تَمَّام و المُتَنَبّي و شَوْقِي رَحِمَهُمُ اللهُ))[14].

و الحقيقةُ أنَّ شِعْرَنَا العربيَّ الأصيلَ لَمْ يتمثَّلْ وَ حَسْبُ فيما ذَكَر المؤلِّفُ مِنَ المُعلَّقاتِ السَّبْعِ أو العَشْرِ ، و نَقَائضِ جَرِيرٍ و الفرزدقِ و الأخطلِ ، و هاشميَّاتِ الكُمَيْتِ، و زُهْديَّاتِ أبي العُتاهيَّةِ ، و رُوميَّاتِ أبي فراسٍ ، و لزُوميات أبي العلاءِ و شوقيَّاتِ أميرِ الشُّعَراءِ ، فالمؤلِّفُ – كَمَا أَظُنُّ – لاَ يَقْصدُ الاستقصاء و إنَّمَا يَقْصُدُ الاستدلالَ.

و إلاَّ فهناكَ حَوْليَّاتُ زُهَيْرٍ ، و اعتذارتُ النَّابغَةِ ، وَ أَهَاجِي الحُطَيْئَةِ ، وَ مُحْمَهَراتِ الشِّعْرِ ، وَ مُنْتَقيَاتُ العربِ ، وَ مُذَهَّبَاتِ الأَوْسِ و الخَزْرَجِ ، و عيُونُ المراثي السَّبْعِ.

ثمَّ عَبْرَ العُصُورِ مَشُوبَاتُ العَرَبِ ، و بَانَتْ سُعَادُ و ميميَّةُ حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ الهلالي، و المَلْحَماتُ وَ مَرَاثِي أبي تَمَّامٍ، و مدائحُ البُحْتريِّ و تشبيهاتُ ابنِ المُعْتَزِّ ، و رَوْضيَاتُ الصَّنَوْبري ، و لطائفُ كُشَاجِمَ و قلائدِ المتنبي. و قبلَ هذا و بعدَ تلكَ هناك المدائحُ النبويَّةُ، و هي عدَّةٌ و عديدَةٌ تَنْطَلِقُ بينَ الحينِ و الآخرِ دوماً مِنْ حناجر الشُّعراءِ ذوي القلوبِ المؤمنةِ ، و العقولِ المُسْلِمَةِ ، و هذه و تلكَ لا أَعْتقدُ غيابَها عَنْ بالِ الشَّاعرِ عُقَيْلاَنَ لَوْ أَرَادَ التَّقَصِّيَ و التفصيلَ.

و عَوْدَةٌ إلى اعترافاتِ المُؤَلِّف. فَهَا هُو ذَا يَعْتَرِفُ للمرَّةِ الثالثة بِغَلَبَةِ الخَصْمِ.

و يَبْدُو في هذه المرّةِ أَنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بالاعترافِ و الإقرارِ ، بلْ نَصَّبَ من نَفْسِه مُحَامياً للدِّفَاعِ عَنْ الخَصْمِ ، لاَ لأنَّ الخصمَ علَى حَقٍّ ، بل لأَنَّنَا سَخِرْنَا مِنَ الخَصْمِ أَوَّلَ الأَمْرِ ، كَمَا سَخِرَتِ الأَرْنَبُ مِنَ السُّلْحَفَاةِ.

وَ ثَانياً عائدٌ إلى صَحَافَتِنَا الأدبيَّةِ ذاتِ الملاَحِقِ الكَئِيبَةِ.

((أقُولُ لقد انتصرَ أهلُ الباطلِ فعلاً على حقِّنَا. و حَسْبُكَ أنْ تُلْقِي نَظْرةً على صحافتنَا الأدبية و ملاحقها الكئيبة لترَى كيفَ تُبْدِلُنَا بسِحْرِنَا الحلالِ ، و شعْرِنَا المطربِ المُعْجَبِ سَفْسَطَةً توشكُ أن تكونَ رَطَانةً لا هي بالشِّعْرِ و لا هي بالنثر.

نَعْصُرُهَا فلاَ نَرَى في عُصَارَتِهَا إلاَّ الغُمُوضَ و التقليدَ و الوثنيَّةَ ، و الخرافَةَ و السُّمَّ و الشُّبُهَاتِ[15].

و يقفُ المؤلِّفُ هُنَيْهَةً يدفعُ فيهَا عن نَفْسِه شُبْهَةَ العِدَاءِ للتَّجْديدِ الحقِّ و الكُرْهِ للإبداعِ الصَّادقِ ، فيقولُ : ((وَ مَعَاذَ اللهِ أنْ يكونَ كَلامي هَذَا ثورةً على الإبداعِ ، فقَدْ كُنْتُ وَ مَازِلْتُ أطرُبُ لكُلِّ تجديدٍ يُضيفُ إلى أدبِنَا جديداً.

لكن نَقْمَتِي مُوَجَّهَةٌ إلى التَّقْليدِ الأعمى ، و العبوديَّةِ الثقافيَّةِ ، و الانحرافِ في تَيَّارِ الفكرِ الخبيثِ الموبوءِ الثَّائرِ على الفَضَائلِ))[16].

و يَسُوقُ المؤلِّفُ بالدَّليلِ عَلَى رَغْبَتِه في التَّجديدِ فيقولُ :

((لَقَدْ جَدَّدَ شَوْقِي رَحِمَهُ اللهُ فَطَرِبْنَا لتَجْديده ، لأَنَّهُ حافظَ عَلَى شَخصيَّةِ شعْرِنَا، ثمَّ أَضافَ إليهِ جديداً في القَوَالبِ ، و الموضوعاتِ و الملحمةِ ، و المَسْرَحيَّةِ فكانَ بحقٍّ أميرَ الشُّعراءِ.

وَ جَدَّدَ أتباعُ مدرسةِ أبولُو ، و مدَرْسَةِ المَهْجَرِ ، و مدَرْسَةِ الدِّيوانِ و غيرهم ، فَرَحَّبَ الأدبُ بتجديدهم لأَنَّهُ كانَ تجْديداً و لَمْ يكنْ عُبُودِيَّةً))[17]. و يصفُ المؤلِّفُ نهجَهُم في التَّجْديدِ فيقولُ :

((أولئكَ كانوا كالمُقْتَبَسِ الذَّكيِّ الَّذي يتعهد تراثَه و تلادَه بالاصلاحِ و الإنْمَاءِ و المُمَارَسَاتِ الذَّكيَّةِ ثم يضيفُ إليهِ طارفاً بالسَّعي الدَّءوبِ، و الجُهْدِ المُثَابِرِ الكسُوبِ))[18].

و ينتقلُ إلى المُوَازَنَة بينَ أولئكَ الْمُجَدِّدينَ بحقّ ، و أولئكَ الخَلفُ الذينَ يَدَّعُونَ التجديدَ، أو الذين اتخذوا منَ التَّجْديد معْوَلَ هَدْمٍ ، و مُؤَامَرَةَ لؤمٍ ، كمَا يَقولَ المؤلفُ:

((أمّا هؤلاءِ الخلفُ الذين خَلفُوا منْ بعدِ أولئكَ فقد اتّخذوا منَ التَّحديدِ معْوَلَ هَدْمٍ ، و مُؤَامَرَةِ لؤْمٍ ، لإطفاءِ نورنَا، و اهانَة تراثنَا، و إذابَة شخْصيَّتنَا حَتَّ لقدْ نشأ بمساعيهم جيلٌ منَ الشعراءِ لا يَدْري شيئًا عَنْ بلاغةِ القرانِ الكريمِ ، و روائعِ الأدَب الرَّفيعِ ، وكلُّ بضَاعَته قالَ اليوت و يونج و كولردج وهلر و غيرهم ممن وضعوا نظرياتٍ قدْ تصْلحُ لمجتمعاتهم، و لكنَّهَا لا تَصْلحُ لمجتمعنَا ولا لأمَّتنَا))[19].

وَ مَنْ قِراءَتنَا للمؤلفِ في صَفحَاته القليلة السَّابقة، يتبيَّنُ لنَا مَنْهَجَهُ في التكرارِ للتأكيد، أو تَدْعيم مَوْقفه ببيانِ الأدلة و سَرْدِ الأمثلة.

و هَا هُوَ ذا يَسُوقُ لنَا أنماذجَ للجُنَاة – كما سَمَّاهُم في كتابه – ليكشفَ جَنَايَاتهم وَ يُعَرِّيَ أبَاطيلَهُم. فيَقولُ:

((وَ إنْ شئْتَ أنْ تُدْركَ مدَى الخسَارة الفادحة، التي عَصَفَتْ بكُلِّ العناصرِ الفنيَّة في شعْرنَا، فاقرأْ مَعي هَذه المقطوعَةَ، وَهْيَ منْ بابِ الشَّكوَى في الشِّعر الحديث، من ديوان (الأرض و الدم) ص 99، وعنوانُهَا (عذابات سرية) لأحَد أئمَّة الشِّعْر الحُرِّ محمد عفيفي مطر، لترَى المستوى الذّوقي للشكلِ الجديد... يقولُ هذا الشَّاعرِ الحُرُّ.

شربت مرق الأحذيـــــة المنقوعـــــة
فـــــي الخـــــوف و النحيـــــب
أكلت ما يخبزه الأسفلت (يعني الزفت)
فـــــي جوفـــــه من حنطة التعذيب

أقول: إنّ هذا الكلامَ لا يُمْكِنُ أن يكونَ لِشَاعِرٍ حُرٍّ، وَ إنَّمَا يَكونُ مُؤكِّدًا لِشَاعِرٍ حُرٍّ.

يقول المؤلّفُ:

هذه مقطوعةٌ أخرى لشاعرٍ آخرَ، وعسَى ألاّ تفعلَ بالأخِ القارئ مَا يَفْعَلُهُ زَيْتُ الخِرْوعِ....

فـــي حذائي مسمار، و في ذقنـــي شوكة
هذه ممتلكاتـــي، افتح الشمسية و القنـــاني
انزلج في الجغرافيا ، في عنق زرافة اصطياف

نَاشَدْتُ اللهَ ضَميرَ القَارئِ أن يَفْتِنِي أشَعْرٌ هَذا أمْ صَديدٌ ؟ وَ بالمُنَاسَبةِ فَالقِطعَةُ هي مِمَّا أُعْجِبَ به المَرَوِّجُونَ، وَ هِيَ لشَوَقِي أبُو شَقْرا بعنوانِ (حَجَرٌ في سروال)، وَ قدْ نَشَرَتْها له مَجلةُ شِعْرٍ فِي عَدَدِهَا السَّادِسِ للسنَّةِ السَّابعَةِ 1963م على أنَّها فتحٌ و إبداعٌ)) [20].

ويَتَّخِذُ الشَّاعرُ عقيلانَ الموازنةَ أسلوبًا لتوضيحِ أقواله، وتأكيدِ آرائه.

فقدْ ذكرَ أنماذجَ للجُنَاةِ مِمَّا يُسَمَّى الشّعرُ الحرّ، أردفهم بأنماذجَ دامغةٍ من شِعْرِ الأصَالةِ، فقال:

((أهَذا هُوَ البديلُ مِنْ وجدانياتِ أبي الطَّيِّب إذ يشتكي دَهْرَهُ، كما أرادَ هذانِ الشَّاعِرَانِ أنْ يَشْكوا دَهْرَهُمَا ؟ !

أهَذا هُوَ البديلُ لقولِ ذلكَ العبقريِّ الحكيمِ الأمينِ على الأخلاقِ ، من قصيدةٍ مُمْتِعَةٍ لهُ عُنْوَانُهَا شَكوَى..

بِمَ التَّعلُّلُ لا أهـــلٌ ولا وطـــنٌ ولاَ أنيسٌ ولا جـــارٌ ولا سكـــنُ

أُريدُ من زَمَنـــي ذا أنْ يُبلغَنـــي ... مَا ليسَ يبلُغهُ منْ نفســـه الزَّمَنُ
مَا كُلُّ ما يَتمَنَّى المرءُ يُدْرِكُـــه ... تَجْرِى الرِّياحُ بما لا تَشْتَهي السُّفُنُ

أمْ هذا هُوَ البديلُ بقولِ ابنِ زَهْرٍ، حين اشتكى الشَّيْبَ، فرسَمَ للشّكوى لوحةً فنيَّةً ، إذ يقولُ:

إنِّي نَظرْتُ إلى المِرْآةِ إذْ جُليَتْ ... فَأنْكرَتْ مُقلتَايَ كُلَّ مَا رَأتَـــا
رَأيْتُ فيهَا شيْخًـــا لسْتُ أعْرِفُهُ ... وَ كُنْتُ أعْهَدُ فيهَا قَبْلَ ذاكَ فَتَى
فَقلتُ أيْنَ الذي بالأَمْسِ كَانَ هُنَا ... مَتَى ترَحَّلَ عَنْ هَذا المكانِ مَتَى !!
فَاسْتَضْحَكتْ ثمَّ قَالتْ لِي تغَالطُنِي ... قـــدْ كانَ ذاكَ وَهَذَا بَعْدَ ذاكَ أتَى

أمْ هَذا الكلامُ عِوَضٌ عَنْ شَكوَى العبَّاسِ بنِ الأحْنَفِ إذ يَشْتَكِي الهَجْرَ فيقولُ:

نَزَفَ البُكاءُ دُموعَ عَيْنِكَ فالتَمِسْ ... عَيْنًـــا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مـــدْرَارُ
مَـــنْ ذا يُعيرُكَ عَيْنَهُ تبْكِي بِهَا ... أرأيْـــتَ عَيْناً للبُكاءِ تُعَـــارُ ؟

وَحَسْبُكَ بهذه العيِّنَة منَ المَنْجَم لتعْرفَ سَائرَ المَعْدَنِ الكريمِ)) [21].

كما وازن المؤلفُ بَيْنَ نماذجِ الجُنَاةِ وأنْمَاذِجِ الشُّعَرَاءِ، يأخُذُ في مواصَلةِ الموازنةِ ولكنْ هذه المرَّةَ بَيْنَ المَصنَّفَاتِ فيقولُ:

((لقدْ كنْتُ أخْلو إلى الشِّعْرِ العربِّي المُتناثرِ في أمَّهَاتِ كتبِ الأدَبِ، و بخاصَّةٍ (كتاب الأغاني) فأشْعُرُ كأنِّي فِي بُسْتَانٍ مُتَنوِّعِ الفتنةِ منْ زَهْرٍ وَثَمْرٍ، وأعْشَابٍ وَ دَوْحٍ، ونَجْمٍ وَشَجَرٍ، كانَ يُضْحِكني وَيُبْكِيني، وَيُغْضِبُني وَيُرْضِيني، وهوَ في كلِّ ذلكَ مُمْتِعٌ، وأجملُ مَا يَعْجبُني فيهِ صُدُورُهُ عَنْ نفوسٍ شاعرةٍ حقّاً وَ صدْقا، ليْسَتْ مُزَيَّفَةَ الشَّعريّةِ، وحتّى أولئكَ الأعرابُ الذينَ كانتْ تَقذفُ بهُمُ الصَّحراءُ إلى شَوارعِ المُدُنِ و قُصورِهَا، كانُوا في شعرِهِم مَصْدَرَ إمتاعٍ عَجيبٍ للنَّاسِ و الرُّواةِ والخُلَفَاءِ، لأنَّهُمْ فعلاً كانُوا

شُعَرَاءَ... مرَّ سليمانُ بنُ عبدِ المَلكِ على أعرابي يَمْشِي وراءَ إبلِه، وقَدْ أمْحَلتِ الأرْضُ وَانْقَطعَ المَطَرُ، فَسَمِعَهُ يَصِيحُ مُخَاطِبًا رَبَّهُ جَلَّ وَعَلا:

رَبَّ العِبَـــادِ مالنَا و مَالَكَـــا قَدْ كُنْتَ تَسقِينَا فَمَا بَدا لكَـــا ؟

أنْـــزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ لا أبَا لكـــا

فقالَ سُلَيْمانُ وهوَ يَبْتَسِمُ.... أشْهَدُ أنَّهَ لاَ أبَا لَهُ)) [22].

ثمَّ يَقولُ المؤلِّفُ بالمُقابِلِ :

((و اليومَ أشْتَري أرْبعينَ ديوانًا مِن الشِّعر الحرِّ... فأتجَرَّعُ في قراءته الصَّبْرَ المُرَّ، وَ بَعْدَ العَناءِ لا أفوزُ مِنْهَا بطرْفَة، أو نُكتة أو حكمَة أو فائدة لُغَويَّة.. وَ لَيْتَ الأمرَ يقفُ عندَ ذلكَ، فهيَ في مُعْظمِهَا إغراءٌ لقارئهَا أنْ يَكفُرَ بقوْمِه ولغَتِه و تُرَاثِه، ويتبَّدلَ بهَا أرَاءَ الأعداءِ، ونَظريّات المَلاحدَة، وهَمَزَاتِ الشَّياطين)) [23].

ونصلُ إلى الصَّفحةِ العشرينَ من كتابِ جنايةِ الشِّعْرِ الحُرِّ، ويبدأُ بهَا المُؤلفُ قِسْمًا جديدًا، يُعَنْونُهُ بأقسامِ الشِّعْرِ الحُرِّ الحديثِ، و مَع هذا العنوانِ يَبدأُ الخلافُ بَيْني وبَينَ المؤلِّفِ، بَعْدَ وُدٍّ ووفاقٍ دامَ تِسْعَ عَشْرَةَ صَفحَةً.

فالعنْوانُ – كمَا هُوَ مُثبتٌ – فيه أكثرُ مِنْ مُغَالطة، لا أدْري كيْفَ وقَعَ المؤلِّفُ فريسةَ السَّهْوِ في هذه المَرَّة. و مَنْ يَدْري فَرُبَّمَا وقَعَ فريسةً الذئَابِ الشَّرسَةِ الجَائعَةِ التي ذكرَهَا مِنْ قَبْلُ. ممَّا دَفعَهُ إلى إثْبَاتِ عنْوَانٍ غَيْرَ دَقيقٍ ، و غَيرَ مُحْكمِ النَّسْجِ .

فَهْوَ بقَوله: (الحَديث) بعدَ أنْ قالَ: أقسَامُ الشِّعْرِ الحُرِّ، قوْلُهُ يَعْني أنَّ هناكَ شِعْرًا حُرًّا قديمًا، و أخرَ حديثًا، وهَذا مُجَانبٌ للصَّوَاب.

نَاهيكَ أنَّ المؤلِّفَ حَرَمَ الشِّعْرَ العربيَّ الأصيلَ – بعنوانه ذلكَ – مِنْ سِمَةِ الحَدَاثة، و عليْهِ فَكلمَةُ الحديثِ في عنوانِ المؤلِفِ إطنابٌ لا فائدةَ مِنْهُ.

و هَذا ما يُسَمِّيه عُلماءُ البَلاغَة بالإيغال.

فالمعنى أو المرادُ المقصودُ في بيان صِفَة الشِّعْر الذي يُريدُ المؤَلِّفُ بيانَ أقسَامه قد اكتمَلَ بقوله: الحرُّ، بعد كلمَتي أقسام الشعر ، إلا أنَّ المؤلِّفَ أطْنَبَ في بيان صِفَة الشِّعر، فأوْغَل في وَصْف الشِّعر بإضافة كلمة الحديث.

و الإيغالُ قد يكونُ مَقبُولا في الشِّعر، إلا أنَّهُ خلافُ ذلك في النَّثر .

وَمَنْ يَدْري فَرُبَّما للشِّعْر أثرٌ أكثرُ ممَّا للنثر في نفس المُؤَلِّف، ممَّا أتاحَ للشِّعر أنْ يَضَعَ بَصَمَاته عَلى النَّثر لدَيْه. و إذا مَا اتفقنَا عَلى إزالة كلمة الحديث ليبقَى العنوانُ: أقسامُ الشعر الحُرِّ. فإنَّ هذا العنوانَ نَقبَلهُ إذا ما سَلَّمْنَا – فَرَضًا أنَّ هُناكَ شِعْرًا حُرًّا.

و قبلَ أنْ أواصلَ الردَّ على هذا العَنوان ، و تفنيدَ مضْمُونه، أترُكُ للمُؤَلِّف تَفْصيلَ أقسَام عنوانه، و سَرْدَ نَماذجه التي اختَارهَا.

ونعقبُ ذلكَ بوقفة ليست بالقصيرة، نَلْفتُ فيهَا نَظرَ المؤَلِّف و القارئ الكريم إلى مَا وَقَع فيه شاعرُنَا مِنْ وَهْم، تذكرَةً منَّا (فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمنينَ)[24] ، مُرْدفينَ ذلكَ بتصحيح ما ارتضَاهُ الشَّاعرُ عُقيْلانَ وَقبلَ به.

ونَدَعُ المؤلِّفَ الآنَ يَحْكي لنَا مَا أرادَ اثباتَه في كتابه فيقولُ[25]:

(أقسَامُ الشِّعْر الحُرِّ الحديث)

قَبْلَ أنْ نُحَدِّدَ مَوْقفَنَا منَ الشِّعْر الحديث، أرَى أنْ أوَضِّحَ ألوَانَه الثلاثَةَ .

فاللَّوْنُ الأوَّلُ: هُوَ الذي له وَزْنٌ عَلى هَيْئة تفعيلة مُلتزمَة، وتَبْرُزُ فيه القوافي أحْيانا.

واللَّوْنُ الثاني: هُوَ الذي لهُ تَفعيلةٌ وَليْسَ لهُ أيَّةُ قافيَة.

واللَّوْنُ الثالثُ: هُوَ الذي لا وَزْنَ لهُ وَلا قَافيَةَ.

فمِنْ نَمَاذجِ اللَّونِ الأوَّل ، قوْلُ نَزَارٍ مِنْ قَصيدَتِه (رسالة من تحت الماء):

إن كنت قويًا أخرجني من هذا اليمْ

فأنا لا أعـــــــــــــرف فنَّ العومْ

الموج الأزرق في عينك يجرجرني نحو الأعمق وأنا ما عندي تجربة في الحب و لا عندي زورقْ

إن كنتُ أعزُّ عليك فخذ بيدي

إني أتنفسُ تحت الماء

إني أغرقْ

أغرقْ أغرقْ

فَنزارُ في هَذه القصيدةِ لا يحيدُ عن تفعيلةٍ واحدةٍ، وهي تفعيلةُ البحرِ المُتَدَارَكِ (فَعِلنْ)، ولكنَّه يزيدُ فيهَا وَيُنْقِصُ غَيْرَ مُتقيِّدٍ بالبحرِ المُتَدَارِكِ.. ثمّ إنَّ للقصيدَةِ قوافيَ تَبْرُزُ أحيانًا وتَخْتَفِي.

وَكلُّ شِعْرِ السَّيَّابِ تقريبًا مِنْ هذا القبيلِ ، كقوله من قصيدةٍ، عِنْوَانُهَا (الوصية) يُوصِي زوجتَهُ بابنه غَيْلانَ في مَرَضِ مَوْتِه، وَ هِيَ مِن ديوانه (المعبد الغريق)

كوني لغيلان رضىً وطيبهْ

كوني له أبا وأمًّا

و ارحمي نحيبه

و علمية أن يذيلَ القلبَ

للفقير واليتيم

و علميه.

فَبَدرُ هُنَا يلتزمُ تفعيلةً واحدةً هِيَ (مُتْفعِلُنْ)، وهي تَفْعيلةُ الرَّجَز، ولكِنَّهُ لا يَلْتَزِمُ العددَ المطلوبَ مِنْهَا، ثم هُوَ يراوحُ في القافية.

أمَّا اللونُ الثاني وَهُوَ شِعْرُ التفعيلة بِلا قوافٍ، فأمثلتُهُ كثيرةٌ، كقولِ فدْوى في المقطعِ الأوَّلِ من قَصيدتِهَا بعنوانِ (الفدائي و الأرض)

أجلسُ كي أكتبْ

ماذا أكتبْ

ما جَدوى القول

يا أهلي يا بلدي يا شعبي

ما أحقر أن أجلسَ كي أكتبْ

في هذا اليومْ

هل أحمي أهلي بالكلمهْ ..

كلُّ الكلمات اليوم

ملح لا يورقُ أو يزهر

في هذا الليلْ

فقدِ التَزَمَتْ فدوى طوقان نَوْعًا من تفعيلةِ المُتدَارك، لكِنَّهَا أنْفَلَتَتْ مِنَ القافيةِ نهائيًا.

أمَّا النَّوعُ الثالثُ وهو المنثورُ الذي لا أثرَ فيه لوزنٍ أو قافية، فقد صَدَرَتْ مِنْهُ دواوينُ كاملةٌ لأمثالِ الماغوطِ و أُنسي الحاج.....

ومِنْهُ قولُ أدونيس من قصيدةٍ لَمْ أفهَمْ مِنْهَا شيئًا، وهِيَ مِنْ ديوانِهِ (ديوان التحولات و الهجرة)

الزمن فخار

و السماء طحلب

أصير الرعد و الماء و الشيء الحي

و حين تفرغ المسافات حتى الظلّ

أملؤها أشباحًا تخرج من الوجه و الخاصرة

و ترشح بالحلم و ذاكرة الشجر

و حين لا تواتيك الدنيا

أهو بعيني ليزدوج فيها العالم

وجَميعُ الدِّيوانِ المذكورِ مِنْ مِثلِ هذهِ الطلاسِمِ المَشْبُوهَةِ.)) (26)

تلكَ أقسَامُ الشِّعْرِ الحُرِّ و أنماذجه وَفْقَ رؤيةِ المؤلِّف، وما دامَ المؤلِّفُ حَدَّدَ مَوْقِفَهُ، فلنَا الحَقُّ – أيضًا – في بيانِ مَوْقِفِنَا، و هُوَ مُخَالفٌ كلَّ المُخَالفَةِ للمُؤلِّفِ وَمَوْقِفِه.

ليسَ حُبًّا منَّا للخِلافِ و المخالفة ، و إنَّما حُبّاً منَّا في بيانِ الحَقِّ الذي لنْ نَخْشَى فيه لوْمَةَ لائِمٍ .

فَلْنَنْظُرْ إلى أنْمُوذَجي اللَّوْنِ الأوَّلِ اللَّذَيْن سَاقَهُمَا المؤلِّفُ، فَنَجِد في المثالِ الأوَّل، وَ هوَ مِنْ قوْلِ نِزَارٍ في قصيدته – حَسَبَ تعبير نزار – رسالة تحت الماء.

والذي قالَ المؤلِّفُ عنه أنَّ لهَ وزنًا على هيئة تفعيلةٍ مُلْتَزِمَةٍ، إنَّ هَذا القولَ يَدْفَعُنَا إلى الدِّراسةِ العَرَوضيَّةِ لنماذجِ هَذا اللوْنِ ، لِنَرَى الالتزامَ الصادرَ عن المتكلمِ لتفْعِيلَةٍ مِنْ تفْعيلاتِ البحورِ العَروضيَّةِ العَرَبيَّةِ.

فنأخذُ بوزْنِ كلماتِ السُّطور ، لنَجدَ أنَّ الشَّاعرَ قدْ زادَ حَرْفًا ساكنًا في الضَّربِ الثاني و السَّادسِ عَلى صُوَرِ تفعيلةِ (فَاْعِلُنْ)، وهيَ واحدةٌ مِنَ التَّفْعِيلاتِ الثَّمَانِ الخَاصَّة بالبحرِ المُتَدَارك.

وَ بذلكَ لا يَستقيمُ التزامُ هذه التفعيلة، حتى وَلوْ قامَ المتكلمُ بتحريكِ الميمِ في السَّطر الثاني، و الهَمْزةِ في السَّطر السَّادس، لأنَّ فاعلنْ تَرِدُ على خَمْسِ صُوَرٍ هِيَ:

مَخْبُونَة " (فَعِلُنْ)، ومَقطُوعة " (فَعْلُنْ)، ومُذَيَّلة " (فَاْعِلاْنْ)، و مُرَفَّلَة " (فَاْعِلاتُنْ)[27].

و إذا تجاوزنا قواعدَ النظامِ العَرُوضيّ، لِنُعَمِّمَ التشعيث على كلِّ تفعيلةٍ حَيثمَا وردتْ في المتدارَك، فإنَّه يحصلُ لدَيْنَا صُورَتَانِ أُخْرَيَانِ هُمَا: (فَالاتُنْ) و (فَالانْ) و بالثانية يستقيمُ الوزنَ لتفعيلةٍ واحدةٍ مَع صُوَرِهَا.

وفي الحالةِ الأولى، وَهْيَ خُروجُ الشَّاعرِ في سَطرَيْه: الثاني و السَّادس عن صُور التفعيلةِ (فاعلنُ)، يكونُ بذلكَ خَرجَ المتكلمُ مِنَ الالتزامِ في التفعيلة. وَهْيَ السِّمَةُ التي مَنَحَهَا المؤلِّفُ للَّوْنِ الأوَّل، بل نَجدُ المؤلِّفَ نفسَهُ وَقدْ تخلَّى بَعْدَ سطورٍ قليلةٍ عَنْ مَوْقِفِه فيمَا يَخُصُّ اللَّوْنَ الأوَّلَ.

ذلكَ الموقفُ الذي يقولُ فيه (هُوَ الذي له وَزْنٌ عَلى هيئةِ تفعيلةٍ مُلتزمَة...).

نَعَمْ تَخَلَّى المُؤلِّفُ عَنْ مَوْقِفِه، إذ وَقعَ في تضَارُبٍ – كما يبدو – بَيْنَ مَا يُضْمِرُ وَمَا يُظهِرُ. فَهْوَ يُؤكِدُ الموقفَ الذي التَزمَهُ بادئَ الأمْرِ، وَلكِنَّهُ لا يَلْبَثُ في العبارةِ نَفْسِهَا أنْ يُنَاقِضَ مَا يَقولُ.

فهوَ يقولُ مُعَقبًا على كلامِ نِزَار الذي ساقَهُ مِثالا: " فنزار.... لا يَحيدُ عَنْ تَفْعيلةٍ واحدةٍ، وهيَ تفعيلةُ البَحْرِ المتدَارك فعلن ".

وَعَلى الرُّغمِ مِنْ أنَّ تفعيلةَ المتدارك هي (فَاْعِلُنْ)، وليس (فَعِلُنْ)، وإنَّما الأخيرةُ صَورَةٌ مِن صُوَرِ الأولى.

و عَلى كلٍّ فالمُؤَلِّفُ بهذا القَوْلِ يُؤكِّدُ قوْلَهُ: عَلى هَيْئةِ تفعيلةٍ ملتزمةٍ، إلا أنَّ المؤَلِّفَ - كمَا أظنُّ – قد أحسّ بأنَّ الالتزام غَيْرُ وَارِدٍ، وَأنَّ نَزارًا قَدْ حَادَ عَن التفعيلةِ الواحدةِ.

و لذلكَ حَاسبَ المؤَلِّفُ نفسَه، وغَلَبَتْ عليه نزعةُ بَيَانِ الحَقِيقةِ، فأردفَ قائلا: (وَلكنَّه يزيدُ فيها وَ يُنْقصُ غَيْرَ مُتَقيّدٍ بالبحر المتدارك).

وَنصلُ إلى المثالِ الثاني الذي أثْبَتَهُ المُؤلِّفُ، وهو مِنْ كلامِ السَّيابِ، فنجدُه لَمْ يَكنْ أوْفَرَ حَظا مِنْ سَابقِه، إذ تحَطَّمَتْ تفعيلةُ بحر الرَّجَزِ (مُسْتَفْعِلنْ) في كلِّ سَطرٍ من سُطُورِهِ السِّتةِ عَدَا السَّطرَ الرَّابعَ.

فـ (مُسْتَفعِلنْ) تأتي على الصُّورِ الآتية[28]:

- مُسْتَفْعِلنْ (بالخَبْنِ) مُتَفْعِلُنْ و تنْقَلُ إلى (مَفَاْعِلُنْ)
- مُسْتَفْعِلنْ (بالطيّ) مُسْتَعِلنْ و تنْقَلُ إلى (مُفْتَعِلنْ)
- مُسْتَفْعِلنْ (بالخَبْلِ وهوَ زحافٌ مُرَكبٌ مِنَ الخَبْنِ و الطَّيِ) مُتَعِلُن، وتَنْقَلُ إلى فَعَلتُنْ.
- مُسْتَفعِلنْ (بالقطعِ) / مُسْتَفعِلْ، و تُنْقَلُ إلى (مَفعُولنْ)
- مُسْتَفعِلنْ (بالتذييلِ) مُسْتَفعِلانْ.

و إذا تَأمّلنَا كلامَ السَّيَّابِ نَجدُ السَّطرَ الأوَّلَ، وقدْ زيدَ فيهْ تَفعيلةُ (فَعُولنْ)، وَهيَ ليْستْ منْ صُورِ تفعيلةِ (مستفعلنْ)، التي ينبني بحرُ الرَّجز مِنْ تَجَمُّعِ ستٍّ أجْزاءَ منْهَا.

و في نهايةِ السَّطرَيْنِ الثاني و السَّادس نَجدُ زيادةَ سببٍ (حَرَكةٌ وَسُكونٌ) وفي السَّطرَيْنِ الثالثِ و الخَامس زيادةٌ في بدايتِهَا و نهايتها، وعليهِ فانَّ السَّيَّابَ كانَ أكثرَ خروجًا على الوزن من نزار ومَنْ يدري فربَّما يكونُ السَّيَّابُ خالط بين تفعيلتَيْن، لِيَمْزُجَ بَيْنَ بَحْرَيْنِ.

وَ عَلى كلٍّ فقدْ أغْمَضَ المؤلِّفُ عَيْنَهُ في الحالتَيْنِ عَنْ هَذا الخروجِ أو الخَلطِ.

بَيْدَ أنَّهُ عَقَّبَ عَلى كلام السّياب تعقيبًا مُخَالفًا لقواعدِ علمِ العَروضِ، فيقولُ المؤَلِّفُ:

(فَبَدْرُ – يَعْني بدر شاكر السياب – يلتزمُ تفعيلةً واحدةً هي (مُتْفَعِلنْ) تفعيلةُ الرَّجَز، ولكنَّهُ لا يلتزمُ العددَ المطلوبَ منْهَا).

وهَذا كلامٌ كلهُ – دونَ استثناء – عارٍ عَنِ الصِّحَّة.

فتفعيلةُ بَحْرِ الرَّجَز ليْسَتْ (مُتْفَعِلنْ أو مُفْتَعِلنْ) وإنَّما هي (مُسْتَفعِلنْ).

و إنَّما (مُتْفَعِلُنْ) صَورَةٌ مِنْ صُوَرِهَا، و هي في حالةِ الطَّيِّ. و الطَّيُّ[29] زحافٌ مُفرَدٌ، وَهو حَذفُ الرَّابعِ السَّاكن عِنْدَمَا يكونُ ثاني سَبَبٍ، أضفْ إلى ذلكَ فَقَدْ وردتْ أكثرُ منْ صورةٍ في كلامِ السياب، ففي السّطر الأوَّل وردتْ تفعيلةُ مستفعلن وهيَ صَحيحَةٌ – والتفْعيلةُ مَفَاعِلنْ، وهيَ صُورَةٌ ناتجةٌ عَنْ خَبْنِ مُسْتَفعلنْ. وفي السَّطر الرَّابع وردتْ صورةٌ أخْرَى – علاوة على ما سَبَقَ ذكرُهُ – وهيَ مَفعُولنْ، وهيَ صُورَةٌ ناتجةٌ عن قطعِ مُسْتفعِلنْ.

وعلى الرُّغْمِ مِنْ اختلافِ هذه الصُّوَر، إلا أنَّنا نَعُدُّهَا صورةً واحدةً، فهِيَ مِنْ مُشتقاتِ مُسْتفعِلنْ.

وَهذا لا اعتراضَ لنا عليه ، و إنَّمَا الاعتراضُ وَارِدٌ من التفعيلاتِ و الأسبابِ والسّكنات الزائدة الواردة في سطورِ كلام بدر شاكر السّيّاب.

وَ إنَّ ورُودَ ذلكَ – كَمَا أوْضحْنَا – يَكشفُ عَدَمَ دقّة كلام المؤلّف في قوله: (فَبَدْرُ هُنا أيضًا يَلتَزمُ تفعيلةً واحدةً)، ويذكرُ المؤلفُ عبارةً لا أفهَمُ مَقصدَهَا إذ يقولُ: (وَلكنَّهُ – أي السَّـــيَّاب – لا يلتَزمُ العددَ المطلوبَ منْهَا).

وَ هَلِ التزَامُ العَدَدِ المطلوبِ شَرطٌ أثْبَتَهُ المُؤلّفُ لِصفَاتِ اللّونِ الأوّل، وَهَل استطاعَ نزارٌ ضِمْنَ المثالِ السَّابق تحقيقَ العَدَدِ المطلوب !

إذنْ لا أرَى ثَمَّتَ مُوجبٍ لهذه العبارةِ سوى إضفاءِ بعضِ التعْبيرَاتِ البرَّاقَة مَظهَرًا، وَهذه طريقةُ أصْحَابِ التقليدِ للجَديدِ كمَا يَحْلو أنْ يُسَمُّوا أنفُسَهُم، ولا أظنُّ الشَّاعرَ المُؤَلّفَ منْهُم، ومَنْ يَدْري فرُبَّمَا تأثر بهم.

وعَلى كلٍّ لنَا وَقفَةٌ مَعْ هذه العبارات.

أمَّا في اللّوْن الثاني وهو مثالٌ مِنْ كلامِ فَدْوَى طوقان على تفعيلةِ المُتدارَك، وَقعَتْ صاحبتُه فيما وقعَ به نزارٌ مِنْ قبْلُ.

فَكلا المثاليْنِ مِنْ كلامهمَا على تفعيلة البحر المتدارَك (فاعلنْ) وهَذه لَهَا عِدَّةُ صُوَرٍ – كما أوْضَحْنَا – وَقدْ ظهَرَتْ زيادةُ الحروفِ السَّاكنةِ في السّطور الثالثِ و السَّادس و العَاشر.

و هَذه لا تزولُ آثارُهَا إلا إذا خَالفنَا قواعدَ التفعيلةِ المُذيَّلة (فَاعِلاْنْ) لتُصْبِحَ (فَالاْنْ).

وكذلكَ ظهرتْ أسبابٌ (اصطلاحٌ عروضي) زائدةٌ في السَّطرَيْنِ الرابع و الثامنِ، وهذه لا تزولُ آثارُهَا إلا إذا خالفْنَا قوَاعدَ العروضِ العربيّ، وأدْخَلنَا التشعيث على صورَةِ التَّفعيلةِ المُرفَّلَةَ (فَاعِلاتنْ) لتصبحَ (فالاتنْ).

وبالتأمُّلِ في مثالي نزارٍ و فدَوى، وَهُمَا على تفعيلةِ المُتدَارِكِ (فَاْعِلُنْ).

نَجدُ أنَّ الكلامَ - أيَّ كلامٍ - يكونُ أقربَ إلى التلاؤُمِ وَفْقَ البحرِ المُتدارَكِ و تفعيلتُه (فَاعِلُنْ)، ووَفْقَ بَحْرٍ آخرَ هُوَ المُتقَاربُ وتَفعيلتُهُ (فَعُوْلنْ).

و ذلكَ لكَوْنِ البحرِ مَبْنيًّا على تكرارِ تفعيلةٍ واحدةٍ منهَا، وكذلكَ لتعَدُّدِ صُوَرِ التفْعيلاتِ في هَذيْنِ البحْرَيْنِ، ثمَّ لقلَّةِ حَرَكَاتٍ وسَكنَاتٍ هاتَيْنِ التفْعيلتَيْنِ، إذْ كُلُّ تَفْعيلةٍ منْهَا خُمَاسيّةُ العَدَدِ.

و لِذَلكَ كُلُّ كَلاَمٍ يُمْكنُ أنْ نطبِّقَهُ عَلى هَذيْنِ البَحْرَيْنِ، حتَّى مِثال النَّوعِ الثالثِ الذي سَاقهُ المؤلِّفُ، وقالَ عَنْهُ (المنثورُ الذي لا أثرَ فيه لوزن أو قافية). و الجديرُ بالذكرِ أنَّ المثالَ منْ كلامِ المَدْعُو أدُونيس.

فنَجدُ كلامَ هَذا الأدونيس على البحر المُتقَاربِ في جميعِ سُطورِهِ الثمَانِ، على زيادةِ حركةٍ أو حَرَكتيْنِ أحيانًا في السّطور: الأوّلِ والخامسِ والسَّابعِ و الثامنِ، وقد تزولُ هذه الهَنَاتِ إذا قبَلنَا مَبدأ خَلطِ المتكلمِ لتفعيلتَيْنِ في كلامِه، ليمزُجَ بَيْنَ بَحْرَيْنِ، كمَا هُوَ الحالُ لدى السَّيَّاب.

وعليه و بعدَ دراسةِ التفعيلةِ في الأمثلةِ الكلاميَّةِ السَّابقةِ، يَتبيَّنُ عَدَمُ جَدْوَى ألوانٍ منَ الشِّعْرِ لها وزْنٌ على هَيئةِ تفعيلةٍ، فَهذا كالذي يَأكلُ وَهُوَ جَائعٌ أقرَاصَ حُلوةَ المَظهَرِ سامّةَ البَاطنِ، يَظنُّ المرءُ بهذه الطريقةِ، أنَّهُ يَجدُ مَسْلَكًا للهروبِ من الجوعِ الذي يُعَايشُهُ.

و المؤلِّفُ بهذا النَّهْجِ الذي سَلَكَهُ، كانَ يحاولُ إرضاءَ بعضِ النفوس ، ولو بالتَّغَاضي عَن الحقيقة.

و فاتَ المُؤلِّفُ أنَّ كلَّ كلامٍ يُمْكِنُ أنْ يكونَ منَ البحر المُتدارَك أو المتدارِك (بفتح الرَّاء وَ كَسْرِهَا)، أو المتقاربِ للأسبابِ السَّالِفَةِ الذكرِ[30]، حتَّى هذا الكلامَ الذي أسَجِّلُهُ في هذه القِرَاءَة، فكلُّهُ دونَ استثناءٍ على وزن تفعيلةٍ ملتزمةٍ منْ بحر المتدارك، أو المتقاربِ مَع مخالفةٍ جُزْئيَّةٍ لقواعدِ العروضِ العربّي، كمَا هو الحالُ في مُخالفاتِ كلامِ أصْحَابِ الأمثلةِ التي اختارَهَا المؤلِّفُ. و تزولُ هذه المُخَالفَةُ إذا ارْتَضَيْنَا المَزجَ بَيْنَ بَحْرَيْنِ، كإزالةِ مخالفةِ ما سبَقَ منْ أمثلةٍ عندَ العَمَلِ بنظامِ الخَلطِ بينَ تفْعيلتَيْنِ أوْ بَحْرَيْنِ.

أصِلُ الآنَ إلى النَّصيحَةِ التي أوَجِّهُهَا إلى الدَّراسينَ وَقرَّاءِ العربيَّةِ الكرامِ ، وهو أنَّ العباراتِ الرَّنانَةَ الصَّوتَ، الجوفاءَ المضمونَ، التي يُطلقهَا دعاةُ التحديد، بل الهَدْمِ و التخريب، يجبُ ألاَّ تَنْطَلِيَ عَلَيْنَا لكثرَةِ استخدامهم إيَّاهَا، بل عَلَيْنَا مُواجَهَتُهَا وَرَفضُهَا، وَرَدُّ بِضَاعَتِهم المريضَةِ إلى نُفُوسِهم، وَعَلينَا ألا نَدَعَ مَجالاً لها لتَخْترقَ نفوسَنَا، و تستقرَّ في قلوبنا، أو أنْ تجدَ مكانًا في عُقولنَا، لتَخْرُجَ خِلْسَةً على ألسنَتنَا، وتَجْرِيَ بها أقلامُنَا فَتظهَرَ في كتابَتنَا.

وإنَّني ألمَحُ بعضَ هذه العباراتِ قدْ أثَّرَ في نَفْسيَّةِ المُؤلِّف، ممَّا اضطرَّتهُ إلى الانطلاقِ على لسانه و الجَرَيَان في مِدَادِ قلمه.

وَ مِنْ عباراتِ دُعَاةِ الهَدْمِ و التخريبِ التي أثْبَتَهَا المؤلِّفُ بظهُورِهَا عَلى لِسَانِه، قَوْلُهم:

- لا يَحيدُ عَنْ تفعيلةٍ واحدة.
- يزيدُ فيها و ينقصُ غيرَ مُتقيِّدٍ بالبَحْر.

- للقصيدة قوافٍ تبرزُ أحيانًا وتختفي.
- لكنَّهُ لا يَلتزمُ العددَ المطلوبَ منها.
- يُراوحُ في القافية.

و مِنْ أمثلة عَبَاراتهم التي لم يُثبتْهَا المؤلِّفُ، وَ أكْتُبُهَا لهُ ليزْدَادَ ذخيرةً مِنْ تَعبيراتِهِم الْمُومَوَّهَة الخداعة البَرَّاقة، قولُهم:

- يَتنَوَّعُ عددُ التفْعيلاتِ في كلِّ سَطرٍ لوجُودِ علاقةٍ جَدَلِيَّةٍ بين تَجْرُبةِ الشَّاعِرِ الشُّعُوريَّة وَصِيَاغَتِهَا اللفظِيَّة.
- يعتبرُ الشَّاعرُ الحديثُ القافيَةَ والرَّويَّ امتدادًا للمَعنى يَتَغَيَّران بتغيّره، وَيَتَنَوَّعَان وقد يتكرَّران، وقد لا يتكرران. والجزءُ الأخيرُ هو مُرَادِفٌ لِقولِ المؤلف: (يراوحُ في القافية).
- القافيَةُ والرَّويُّ بتنُّوعِها لها دلالةٌ نوعيَّةٌ في الشِّعْرِ الحديث.
- الموسيقى لها أهَمِيَّتُهَا المُمَيَّزَةُ في الشّعر الحديث، حيثُ يتعاونُ على خَلقِهَا تتابُعُ التفعيلات، و تكريرُ القافية بين فترَةٍ وأخرى.
- يكونُ تَنوُّعُ الرَّويِّ بمثابة تَنَوُّعِ مَحَطاتٍ إيقاعيَّة، بالإضافة إلى وَحْدَةِ المعنى، وَغِنَى الصُّورَة، والخَيْطِ العاطفي، والبُعْدِ الإنساني في التَجْرُبَةِ الشعرية الحقَّة.

هذه هيَ عباراتُهم الطلسمية الغامضةُ المَشْبُوهَة لا هدفَ لها إلا تخريبَ تراثنا، وهدمَ شَخْصِيَّتِنَا عَبْرَ القضَاءِ على شعرنَا العربيّ الأصيل .

بَعْدَ هذه الوقفةِ الطويلة، لابُدَّ لنَا من عوْدَةٍ إلى المؤلِّف، وتعقيبه الذي يقولُ فيه:

(والحَقُّ أنَّ اللَّونَيْنِ الأوَّلَيْنِ مِنْ ألوانِ الشِّعْرِ الحر، يمكنُ أنْ يَهضمَهَا الشِّعْرُ العربيُّ، لا كبَديلَيْنِ بكلِّ الأوزانِ، ولكنْ كوَزْنَيْنِ جَديدَيْنِ يُضَافَانِ إلى بحورنَا القديمة، لتصْبِحَ ثمانية عشرَ بحرًا بَعدَ أنْ كانتْ ستَّةَ عَشَرَ) (31).

أعتقدُ أنَّ المُؤلِّفَ الآن اتخذ قرارَه بالعُدُولِ عَنْ هَذا الرَّأي.

حِيَال قوْلِه فيمَا يتعلقُ باللوْنِ الأخير:

((أمَّا اللوْنُ الثالثُ الذي أوْرَدْنَا نَمُوذجَهُ مِنْ شِعْرِ أدونيس، فَإنَّ الشِّعْرَ العربيَّ لا يَعْتَرفُ به، ولا يُعْطِيه اسمَ (شِعْر) لأنَّ العربَ عَبْرَ العُصُور يَعُدُّونَ مثلَ هذا القولِ نثرًا، فهُوَ لا يَمْلِكُ أيَّ نَفحَة أو مُقَوِّمَة أوْ رُكنٍ مِنْ أركانِ شِعْرِنَا العربيِّ، بَلْ إنَّ خُطبَ أكثم بن صَيْفِي، وقسِّ بن سَاعِدَةَ، و رسائلَ الجَاحِظ وابنِ العَميد، ومقالاتِ الرَّافعي و رَسَائلَهُ في وحي القلم، وحديثِ القمر، ورسائلِ الأحزان، ونثرياتِ الزَّيَّات في وَحْي الرسالة، كلُّ هَذه فيها من التقسيمِ الموسيقي، والإبداعِ الفني، والأصالةِ اللُّغويَّة، و الحليَةِ الشكليَّة أكثرُ بكثيرٍ مما في هذه القصائد النثرية، ومَع ذلكَ لَمْ يدَّعِ أيٌّ مِنْ أصْحَابِهَا أنَّهَا شِعْرٌ، لأنَّ الشِّعْرَ العربيَّ عَبْرَ القرونِ لهُ طابَعٌ مُمَيَّزٌ وَ سِمَةٌ واضحةٌ تُمَيِّزُهُ عَنِ النَّثر مَهْمَا كانَ النَّثرُ فنيًّا..)) (32).

و ساق المؤلِّفُ أمثلةً مُؤَكِّدَةً لقوله فقالَ:

وَ إلى القارئِ هذا النموذجَ من نَثرِ الرَّافعي مِنْ مُقدِّمَته لكتاب (تحْتَ رَايةِ القران) يقول رحمه الله:

((اللَّهُـــمَّ جَنِّبْنَـــا فتنَـــةَ الشَّيْطَـــان
أنْ يَقْـــــــوَى بهـــا فنضعـــف

أو نَضعـــــفَ لها فيقـــــــوى
اللّهُمَّ لا تحْرِمْنا مِنْ كَوْكبِ هداية مِنْكَ
فـــي كُـــلِّ ظُلْمَة شـــــكٍّ منَّا
نَسْـــــــأَلُكَ بِوَجْهِـــــكَ
و نَتوسَّـــــلُ إليكَ بحَمْـــــدِكَ
و نَدْعُـــــوكَ بأفئـــــدَة عَرَفَتْـــكَ
حَيْـــنَ كـــذبَ غَيرُهَا فأقـــرَّتْ
و آمَنَـــــــتْ بـــــكَ
حِيـــنْ زُلزِلَ غَيرُها و استَقَـــرَّتْ))

إنَّ هذا النثرَ الفنّي منَ أدَبِ الرَّافعِي، فيه مِنَ الموسيقى أكثرُ ممَّا في الشِّعْر المنثور المزعوم، ومع ذلك لم يَدّعِ الرافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ نثرَهُ هذا شعْر(33).

لأنَّ الشِّعْرَ عِنْدَ العَربِ مُنذ القِدَمِ ، كلامٌ موزونٌ مُتميّزٌ، تجيشُ به الصدورُ على الألسُنَة.

إنَّ رسَالتَي ابنِ زَيْدَونَ الجدّية والهَزليّة قريبتان جدًّا لروح الشّعْر، ولكنَّ شعرَ ابن زيدونَ في ديوانه شيءٌ و رسالتَيْه شيءٌ آخرَ، لِنَستَمِعْ إليه وهوَ يَسْترقِصُ القلوبَ حِينَ يُنْشِدُ(34):

يَا لَيْتَ شِعْري وَفِي كانُونَ فَارقَني ... قلبِي وَهَا نَحنُ فِي أعْقَـــابِ تِشْرِيْنِ
واللهِ مَا فَارَقوني باخْتِيَارهُـــــمُ ... لكنَّهُ الدَّهرُ بالأقـــــدار يَرْمينـــــي
و لا تَبَدَّلتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهُـــــمُ ... إذنْ تبَدَّلتُ دِينَ الكفْرِ مِنْ دِينـــــي

وَ عَلى الرُّغمِ مِنْ الأمثلةِ، فانّني أرَى أنّهُ لا فَارقَ بين اللّونِ الثالثِ و اللّونَيْنِ السّابقيْنِ عَليه.

فكلُّ كلامٍ لا يَستَوفي شُروطَ الشّعْرِ وقوانينَهُ، فلا يجوزُ أنْ نُطلقَ عليه لفْظَ شعْرٍ. و للشّعْرِ أمورٌ ظاهرَةٌ و أخرى خفيّةٌ، والظّاهرَةُ وَزْنٌ و قافية، و إذا لَمْ يتوفرْ في الكلامِ الشّرْطانِ الظاهِرَانِ، فَلا يَحِقُّ لنا البحثَ فيهِ على أنّهُ شعْرٌ، أو نسمّيه بأيّ لوْنٍ مِنْ ألوانِ الشّعْرِ.

إنّ ادّعاءَهُم بأنّ هذا اللّونَ شعْرٌ، سَيَتبَعُهُ ادّعَاءٌ خطيرٌ جدًّا، لأنّ القرانَ الكريمَ له من الإيقاعِ أكثرُ ممّا لِهذه القصائدِ المنثورة (وفق تعبيرهم)[35]، فإذا اعتبَرْنَا هذه المقطوعات شعرًا، فسوفَ يأتي مِنَ الملاحِدَةِ مَنْ يَقولُ إنّ القرانَ شعْرٌ، وقدْ تُكْتَبُ آياتٌ وكلماتٌ من القران بَعضُها تحْتَ بَعْضٍ، ثمّ يُحْكَمُ أنّهَا كالشّعْرِ المنثور، مع أنّ اللهَ جَلّ وعلا نَفى أنْ يكونَ القرانُ شعرًا، أوْ أنْ يكونَ مُحَمّدٌ - صَلّى اللهُ عليه وسلّمَ – شاعرًا، فقالَ جَلّ وعلا (وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ)[36] و قال في نبيه الكريم (وَ مَا عَلّمْنَاهُ الشّعْرَ و مَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ)[37] بل إنّ الوليدَ بنَ المغَيرَةِ حينَ أُعْجِبَ بالقران ، قالَ لقدْ سَمِعْتُ من مُحَمّدٍ كلامًا مَا هُوَ بالشّعْرِ ولا بالكهانَة.

قراءاتُ الشّاعرِ :

يخرجُ الأستاذُ الشّاعرُ أحمدُ فرح عقبلانَ بحقيقةٍ بل بحقائقَ هامة، اثرَ قِرَاءَتِه لكثيرٍ مِنْ شعْرِ المتَحَمّسينَ المتَصدّرينَ لتقليدِ التحديدِ الأجنبي، ومِنْ نَقدِ نُقّادِهم، ولَمّا كانتْ مُعْظمُ هذه الحقائقِ مجهولةً لدَى القارئ العربيّ، ولأهمّيّة النتائج التي توصّلَ إليها الشّاعرُ عقبلانَ، أحْبَبْتُ أنْ أُثْبِتَهَا هُنَا وَفْقَ ورودِهَا في كتابه الموسوم "جناية الشعر الحر".

وقد جعلَها المؤلِّفُ بعنوانِ: شُبَهاتٌ حَوْلَ التجديدِ، فقالَ – رَحِمَهُ اللهُ تعالى – : شُبُهَاتٌ حولَ التجديد(38).

لقدْ تَعَلَّقْتُ مِنْ صِغَري بالشِّعْرِ، وَنَظمُتهُ وَوَجَدتَني لا شعُورياً أعْجَبُ إعجابًا شديدًا بالمتنبّي من القُدَامَى، وبشَوْقِي من المعَاصِرينَ... وكانَ يُعْجِبُنِي في شِعْرِهِمَا خَصَائصُ ظَلَلْتُ أتَطَلَّبُهَا في كلِّ شِعْرٍ.

الأُولَى: رُوح الجِّديَةِ والأخلاق، فأنتَ في شِعْرِهِم مع تطلعاتِ الإنسانية وطمُوحَاتِها وأمالها وآلامِهَا.

و **الثَّانيةُ**: ديباجةُ اللَّفظِ وَرَوْنَقه وَوَضُوحُه وَحُلوُّه مِنْ الخطأ، فأنتَ مِنْ شِعرِهِمَا في ذخائرَ لغويَّة.

و **الثَّالثَةُ**: تَنَوُّعُ الموضوعاتِ بَيْنَ الغزلِ و الحِكمَةِ و الوَصْفِ و الحَمَاسَةِ و الرِّثاءِ و الشَّكوى و الوجدانياتِ الحُلْوَة.

و **الرَّابعَةُ**: تلكَ التجَارِبُ الصّادقةُ التي تُحَدِّثُ النَّاسَ عَمَّا في نفوسهم بلا غُمُوضٍ، ولا إغراقَ في الخيالِ.

و **الخَامسَةُ**: نَصَاعةُ المعنى وسطوعُه وشعبيَّتُهُ، حتى أنَّكَ لتسْمَعَ عَجُوزا تُنْشِدُ لأبي الطيّبِ وهيَ فاهمَةٌ لما تنْشدُ:

إذا أنتَ أكرمْتَ الكريمَ مَلكتَهُ وَ إنْ أنْتَ أكرمْتَ اللَّئيمَ تَمرّدَا

وتُنْشِدُ لشوقي:

وَمَا نَيْلُ المطالبِ بالتّمنّـــــي و لكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِـــــلابَا

ثمّ لما جَاءَت حركاتُ التحديد، أقبَلتُ على الجديد بنَهمٍ شديد، يَدْفعُني إليه حُبُّ الشِّعْر، ولَمّا قرأتُ الكثيرَ الكثيرَ من شعر المُتَصَدِّرينَ للتحديد، و منْ نقد النُّقَاد الجُدُد، أحْسَسْتُ بصَدْمَة شَديدَة، خَرَجْتُ عَلى إثرهَا بنتيجة أَثْبَتَتْهَا بَعْدَ ذلك الأَيَّامُ:

وَ هْيَ أنَّ وَرَاءَ هذا التحديد مُؤامَرَةَ هَدْمٍ لأدَبنَا، وثوْرَةً على تُرَاثنَا، ولقدْ أَكَّدَ لي هَذه الحقيقةَ، إنّي دَرَسْتُ نَفْسيَّات معروفة من زُعَمَاء التحْديد، فلما كَشَفْتُ عَنْ وجوهِهَا أقنعَةَ الزِّيف، إذا وُجُوهٌ شَوْهَاءُ كالسَّعالي في أعْيُنهَا بريقُ الشَّيْطان ، وَفي أنْيابها سُمومُ المَوت، وَفي قسَمَاتهَا جُذامُ الطاعُون .

و إنّي إذ أَكْشفُ هَذه الحقيقةَ بوقائعَ وأرقامٍ ، أُشْهدُ اللهَ أنّي لا أريدُ أنْ أَبْدَأَ على إنسانٍ ، بل إني لأدْعُو، أدْبَارَ صَلواتي لكلِّ الإنسانية بالهداية. ولكنْ حينَ أرى مخالبَ المؤامرة تَمتدُّ إلى كياني وَمَجْدي وَديني، أعْتقدُ أنَّ كشْفَ الأقنعة قد أصبحَ فَرْضًا يُحتّمهُ الدّينُ، وكيْفَ لا أنبَّهُ أبناءَ أُمَّتي إلى حَبائلَ سَوْءٍ تَحتَ أقدَامهَا، إنْ لم أكشفْ لَهُمْ مَواقعهَا فقدْ تلتفُّ حَوْلَ أعناقهم و تُرْديهم، و لهذا و بدَافعٍ من إيماني وحرْصي على تراث الإسلام، أضَعُ أمَامَ القرَّاء الحقائقَ الآتية[39]:

الحقيقةُ الأولى: واكبَتْ حَرَكةَ الشِّعْر المنثور، حَرَكةٌ أُخْرَى مُريبَةٌ بل مُجْرمَةٌ ، وهي الدَّعْوَةُ إلى اللّهجات العاميَّة، والحروف اللاّتينيّة، وَهَجْرِ اللُّغَة الفُصْحَى والحروف العربيَّة، بدَعوى أنها عاجزةٌ عَنْ توليد أسماءٍ للمُصْطلحَات الحديثة في حقل الفنون و الصِّناعَة والتكنولوجيا، وأنّها مُعَقّدَةُ الصِّيغ، صَعْبَةُ الإملاء وقدْ أثْبَتَتْ الأيَّامُ فيمَا بَعْدُ، أنّ مُرَوّجي تلكَ الأكذوبة، لَهُمْ انتماءاتٌ مشبوهةٌ منْ مُوَالٍ للاستعمار، أو عضو في محْفَلٍ ماسوني، أوْ عميلٍ شيوعي، والغريبُ أنّ تلكَ الأصواتَ الغرْبَانيَّةَ (الاستدماريَّة)

صَدَرَتْ عَنْ رجالٍ كانتْ لهم دعايةٌ هائلةٌ في حقولِ الأدبِ، والفكرِ والاجتماع، وكانَ لِي وللجماهيرِ في بَعْضِهم ثقةٌ و احترامٌ...

وكنتُ أتعجَّبُ كثيرًا من هذه الدِّعَايات المرتَدَّة، والدَّعوات الهدَّامة، كيف تصْدُرُ عن هؤلاءِ الأعلام، حتّى اتضحَ لِي فيمَا بَعْدُ، أنَّ هؤلاءِ أو مُعْظمَهُم قدْ قيّضَ لهُمُ العَدُوَّ قرنَاءَ، فَزَيَّنُوا لهُم أفكارَ الشيطان، وقد عَرَفْتُ مِنْ بين قرَنَائِهم القاضي البريطاني المستشرق ولُمور الذي اشْتَعَلَ حماسًا وإخلاصًا لهذه الدعوة، حتى لقد بادرَ بوضع قواعدَ للهجة المصريّة، وكتبَ يتغزَّلُ فيها بأنَّهَا لهْجَةٌ حلوَةٌ عَذبَةٌ سَهلةٌ يُمْكِنُ مَع بَعْض التعْدِيلِ، أنْ يُسْتغْنَى بهَا عَن العربيَّة الفُصحى، وما فِيها مِنْ صُعُوبَة وتعقيد.

وَ عَرفتُ اسمًا بريطانيا آخر هو وليم ولكوكس الّذي كانَ يعملُ بمصْرَ، فَقدْ ترجمَ الإنجيلَ إلى العاميَّة المصريَّة لِيُخْرجَ التجربةَ المَاكرةَ إلى حيِّز التنفيذ، و لكنَّ المستعمرينَ (المستدمرين) لم يلبثوا أن أدركوا أن العرب لا يؤمنون بكلام الدُّخلاء... هنالكَ خلوا إلى شياطينهم وَعُمَلائهم مِنَ العَرب ليقوموا بنقل الوباءِ نيابةً، عن أسيادهم المستترينَ، ويمثّلونَ دورَ ببغاوات تُرَدِّدُ مَا يُمْلَى عَلَيْهَا.

و عَلى الرُّغمِ مِنْ نفوذِ الاستعمارِ (الاستدمار) والمراكز العالية التي كانَ يَحْتلُّهَا أعوانُه، فقدْ يَسَّرَ اللهُ للغَة القران مَنْ يُدَافِعُ عنها من الأدباءِ المؤمنينَ كالرَّافعي والزَّيات وحَافظ إبراهيم، فارتدَّ كَيْدُ الكائدينَ إلى نُحُورهم، وما زادتْ دعواتُ الهدمِ لغَتَنَا إلا رُسُوخًا وشُموخًا...

و ثبتَ على طول الزَّمَن أنَّ لغتنَا بفضْل الله مَحفوظةٌ بحفظِ القران، وأنَّ كلَّ مَنْ نَاصَبَها العَدَاءَ لَمْ يَرَ خَيْرًا.

الحقيقة الثانية: هِيَ أنَّ الأدَبَ في أوروبَا يصوّر التناقضات، والتقلبَات السِّياسيَّة و الاجتماعية والدينية في مجتمعاتٍ مسيحيَّةٍ أو مُلْحِدَة، وعلى الجُملة فهو رَدُّ فعلٍ للنَّظريَّات الاجتماعية التي سادت أوروبا، كالوجوديَّة والماركسيَّة والرأسمالية واللانتمائية، ولهذا فقدْ تضاربتْ مَقاييسُه النقديَّةُ أيضا، فهناك مِنْ مَذَاهِبِ الفنِّ و النَّقد : الاتجاهات الكلاسيكية – والرومانسية والتومائية والوجودية والليبرالية، والنيو كلاسيكية والماركسية والفرويدية، و اليونجية والبرناسية، والفن للفن، والسيريالية أو التجريدية، والايماجية أو التصويرية، وغير ذلك كثيرٌ منهُ مَا يَصعُبُ على العربِّي نُطقه.

و نحنُ نَفهَمُ أنَّ يأخذَ شاعرٌ فرنسي أو انجليزيٌّ أو المانيٌّ بإحدى هذه النظريات، فيكون في مذهبِه الفنّي سيرياليا أو فرويديًّا أو شيوعيًّا، ولكن ما شأنُنَا نَحنُ العربَ، ونَحْنُ بِحَمْدِ اللهِ قدْ أَكرَمَنَا اللهُ فَظَلَلْنَا عَلى رُغمِ الشَّدَائد مُؤمنينَ مُسْلمينَ...

مَا مَعْنَى أنْ نَسْمَعَ مِنْ شَاعِرٍ عربيٍّ[40] بأنَّهُ سيرياليٌّ أو تجريديٌّ أو لا منتمي، إنَّ هَذه المذاهبَ الأدبية الثلاثةَ كانتْ رَدّ فِعْلٍ للوجوديَّة التي حَارَبَت القِيَمَ الاجتماعية والأخلاقيةَ المتعارفة، وَدَعَتْ إلى التحلل من كلِّ قيْدٍ اجتماعيٍّ، فكان من نتاجِهَا أنديةُ العُرَاة... فَهَل نأخُذُ دونَ تمحيصٍ أو تفكيرٍ مثلَ هَذا الاتجاه الهدَّام ؟ لا لسبَبٍ إلا ليَقولَ النَّاسُ عَنَّا أنَّ هذا الأديبَ متأثرٌ بالأدبِ الأوروبي، وإذنْ فهو مُثقفٌ وَمُتَحَضِّرٌ.

يقولُ الأستاذ الزَّيَّاتُ: إنَّ مَا طرأ على أدبِنَا في عصوره الأدبيَّة المُتلاحقة هو التجديدُ الحقيقيُّ.. فَفِي الأدبِ الإسلامي تجديدٌ، وفي العباسّي تجديدٌ، وفي الأندلسي تجديدٌ، وفي الأدب الحديث تجديدٌ، أمَّا مَا طرأ على الآدابِ الغربيَّة، فلم يكنْ تجديدًا بمقدار ما كان ردودَ فعلٍ للنظريَّاتِ المتضاربة.

نحنُ في الشَّرق لا تنْقصُ شعْرَنَا الموسيقى، فهو نَاضِجٌ موسيقيًّا، ولكن تَنْقصُه الأفكارُ الباعثةُ نحو الكرامة، والتحارب الثقافيَّة الواسعة، فَلِمَ نجعلُ كلَّ تجديدنَا مُنْصبًّا على هَدْم المُوسيقى الشِّعْريَّة، وإقرار الغُمُوض ، وصَيْحَات الانحلال، إنَّ هَذا لا يُمْكِنُ أنْ يُسمّى تجديدًا مُبْصرًا، وأوْلى أنْ يُسمَّى تقليدًا أعْمَى.

الحقيقة الثالثة[41]: كثيرًا مِنَ الشُّعراء والنُّقاد الذين حَمَلوا حملات التحديد، وفَرضُوا على أدَبنَا هذا البلاءَ العنيدَ، أقولُ كثيرًا منْ هؤلاء لا أطمَئنُّ إلى مَاضيهم، ولا إلى عَقيدَتهم، وسأكتَفي بكشْف النِّقاب عَنْ خَمْسَة أسْمَاء، يُعْتَبرُ أصْحَابُهَا مِنْ أبْرَز أعلام التحديد والشِّعْر الحُرِّ، سائلا اللهَ أنْ يَهْدِي مَن بَقِيَ مِنْهُم حيًّا، ويُسلِّمَ أدَبَنَا ولغَتَنا وقراننَا وتراثَنَا مِنْ شُرُور دَعَواتِهم.

وَ لنْ أتَعرَّضَ للأخْلاق الشَّخْصيَّة في هؤلاء، وَ لَو أنِّي عَلِمْتُ أنَّ أحَدَهُم بَذَّ أبَانُواسٍ في المجون والخَمْر والنِّساء، فتلكَ أمورٌ يَظلِمُ بها المرءُ نَفسَه ومالهُ وَصحتَهُ، ولكنَ حينَ يَصلُ الأمرُ إلى إفساد أولادي وإغرائهم بالانحلال والانحراف، فإذ ذاكَ تَصبُحُ الصَّراحةُ فَرْضًا، والنَّصيحَةُ دينًا و السُّكوتُ جريمَةً .

(1) الأستاذ بدر شاكر السياب[42] و هو أبرز أولئكَ الأشخاص، كان رحمه الله شيوعيًّا خَطيرًا مُنذ نُعُومة أظفاره حتى عام 1960، وهي السَّنَةُ التي فيها أعلن توبتَه عَن الشيوعية، تابَ الرَّجُلُ ولكِنْ بعدَ أنْ نَظمَ أشْهَرَ دواوينه، وأبعدَها انتشارا أثناء تلك الفترة المشبوهة من حياته... لقدْ نظَمَ أنضجَ شعْرَه، و هو في أوجُ حَمَاسَته للماركسية، وأعْني دواوينَه الأربعةَ التي يَعُدُّهَا النُّقادُ قِمَّةَ اندفاعه العَاطفي، وَأجْودَ إنتاجه وهيَ: حفار القبور، والمومس العمياء، وأنشودة المطر، والأسلحة والأطفال.

و السُّؤالُ الآنَ – كيْفَ أَطمئنُّ إذا رأيْتُ وَلدى أوْ تلميذي يَقرأ هَذه الدواوينَ، وأنا مُوقِنٌ أنَّ الشَّاعرَ نَظمَها وهو مُعَلِّقُ الولاء، بمَذهَب نِصْفه هَدْمٌ، وَباقيه كفرٌ والحادٌ..

و حتّى بعدَ أنْ تابَ بدرُ – غَفَرَ اللهُ لهُ – و أعْلنَ رُجُوعَهُ عَن الشيوعية، وحينَ رَأى المرضَ الخطيرَ يُحيطُ به مِنْ كلِّ جَانب، ونظمَ دواوينَه الثلاثة التي تُعْتَبَرُ بوادرَ أوْبه إلى الحقِّ، و معالمَ توبةٍ إلى اللهِ... أقولُ حتَّى في هذه الدواوين الثلاثة، ترى لهجَةً لا تخْلو مِنْ صَيْحَاتِ إنكار وَحَيْرَةٍ وتساؤُلٍ وثورَةٍ على الله....

تَسْمَعُهَا بوضوح في (سفر أيوب) و (المعبد الغريق) و (أمام باب الله).

(2) أدونيس[43] – نشأ في جَبل العلويينَ بسوريَّا، وكانَ اسمهُ في طفولته وَصباه وَمَطلع شَبَابه: على أحمد سعيد، وقدْ استهلَّ سِجلَّهُ الوطنيَّ مُنْتَميًا، ثمَّ تحوَّلَ إلى (لا مُنْتَمي) غَيْرَ أنَّ انتماءهَ لَمْ يَكنْ إلى الإسلام ولا إلى العروبة، ولكنْ إلى حزْب عَدوٍّ للإسلام والعروبة معًا، تقومُ فلسفتهُ على أن لسوريَّةَ قوميَّةً متميزةً ليستْ من العروبة والإسلام في شيءٍ، إنَّما هي فينيقيةُ الجذور، وأنَّ على سوريَّا أن تعودَ إلى فينيقيتها، وهي شبيهةٌ بدعوة الفرعونيَّة في مصرَ، كان شعارُهَا عَودَةَ مِصْرَ إلى الفرعونيَّة وانسلاخَها عن الأمَّة العربيَّة.

و بإغراءٍ غَيَّرَ اسمَه العربيَّ إلى أدونيس، و هو إلهُ الخِصْب عندَ الفينيقيين، وعندَ اليونان، وسمعت في حينهَا أنَّهُ غَيَّرَ دينَه أيضًا، وقد استهلَّ حياتَهُ الأدبيَّةَ بديوانِ شِعْرٍ سماه (دليلة)، بَطلاهُ يهوديةٌ ويهوديّ.

أمَّا سائرُ إنتاج أدونيس – باستثناءِ مختاراته التي سَمَّاهَا ديوانُ العَرَب – فَهُوَ سُمٌّ زُعَافٌ يَقتُلُ في النفس إيمانها بالله واليوم الآخر والقران الكريم، لأن" النَّغْمَة الرئيسيةَ فيه الثورةُ على كلِّ مَا قضَى اللهُ وقدَّرَ، وعلى كلِّ مَا شَرَّعَ و أنزَلَ...

دعني ألتقطْ[44] من كتابه الذي سَمَّاه (الثابت و المتحول) هذه العبَارَات المسمومةَ التي تزْعُمُ أنَّ الإسلامَ عَدُوُّ الإبداع، فيقول أدونيس: (إنَّ السببَ في العداء الذي يُكنُّه العربيُّ للإبداع، لكلِّ إبداعٍ ، هُوَ أنْ الثقافةَ العربيَّةَ بشكلهَا الموروث هي ثقافةٌ ذاتُ مَبنًى ديني) وهو كلامٌ مَلفُوفٌ، لوْ عَرَّيتَهُ لكانَ معناهُ ببساطةٍ: إنَّ ثقافةَ العَربِ الإسلاميةَ، هِيَ سَبَبُ تَخَلُّفِهِم وَ كُرْهِهِم للإبداع.

أمَّا خُلاصَةُ نظريته النَّقديَّة، فهيَ الدِّفاعُ عَنْ مَذهَبِ اللاَّ مُنْتَمي في الأخلاق وفي الشعر، ولهذا آمَنَ بالشّعر الحديث، وتَحَمَّسَ لهُ بكلِّ مَا فيه مِنْ مُفَارَقاتٍ وضَلالٍ وَغُموضٍ ، بَلْ لَقَدْ عدّ الغموضَ دَليلا على رَوْعَةِ الشِّعْر...

والى القارئ هذا النَّموذجُ مِنْ شِعْرِهِ الغَامضِ الذي يُطبِّقُ به نَظريَّته الهدَّامَةَ ... قال من قصيدة عنوانها (شمس العاشقة تتدلى)، نشَرَهَا في كتابه (التحولات و الهجرة) ص 59.

نتحاور بالأرجل

بحبر المسام وكلماتها

فجأة

تجيء الصاعقة

نستيقظ ويجرى كلانا وراء رأسه

في حنين السكن و الإقامة

و أمواج الركض

وراء الوطن الآخر

الضائع الدائم

يقول عقيلان :

((إنّا لله وإنّا إليه رَاجِعُونَ))[45].. أهذَا شِعْرٌ يَستَحقُّ أنْ يُنْشَرَ ؟

أتحدَّى أحدًا مِنَ القرَّاءِ قدْ فَهِمَ المقصودَ مِنْ هَذا الهذيانِ الهستيري، وأنَا نَفْسي أعْتَرفُ بأنّي حَاوَلتُ فَهْمَ شيءٍ منْ هَذا البلاءِ فَلمْ أسْتطِعْ.

و العَجيبُ أنّ صَفَحَاتِنَا الأدبيَّةَ تشيدُ بأدونيسَ و انتمَائِه إلى مَذهَبٍ اجتماعيٍّ، اسمُهُ مَذهَبُ اللاّمنتمي[46].

إنّ اللاّمُنْتَمي في الإسلام تُرادفُ كلمةَ (ضالّ) والضَّلالُ طريقُ الكفر، إنّ كُلّ مُسْلِمٍ هوَ في الحقيقةِ مُنْتَمٍ إلى الإسلام وَمِنْ هَذا فاللامُنْتَمي يَعني الكافرَ.

وَ هُنَا لا بُدَّ لِي أنْ أُعَرِّفَ القرَّاءَ بحقيقةٍ لم أعْرِفْهَا إلا مُؤخَّرًا، وَهيَ أنّ (مجلّة شعر) التي يَرأسُ تحريرها يوسفُ الخال في بيروتَ، والتي جَنَّدَتْ طاقتهَا لخدمَةِ اللامنْتَمينَ، شِعْرِهم وَمَذهبِهم، هذه المجلةُ حينَ سَأَلْتُ عَنْ سرِّ إمكانيَاتِهَا الماليَة، واستمرارهَا في عَصْرٍ أقفلتْ فيه الرِّسالةُ ، وعانَتْ فيه المجلاتُ الأدبيَّةُ ما عانَتْ، عَلِمْتُ أنّ ميزانيَّتهَا مُدَعَّمَةٌ بمَعُونَةٍ سَخيَّةٍ من جَمْعيَّةٍ أمريكية تُسَمِّي نَفْسَهَا: جَمعيّة الحريّة الثقافيّة، وهذه الجمعيَّةُ لا مَصْدَرَ لها إلا تبَرُّعاتٍ مِنَ التجّار اليهودِ في أمريكا.

(3) الشاعر الحر اللامنتمي عبد الوهاب البياتي[47] — كان ماركسيًا مُنْدفعًا.

وقدْ طالعتُ شِعْرَه فَوَجَدْتُ بينَهُ وبينَ تراثِنَا وأخلاقِنَا أمدًا بعيدًا، ويمينًا ما رأيتُ في كلّ إنتاجه نَبْضَ العاطفةِ البناءَةِ للدّينَ ولا أذكرُ أنّه رَطَّبَ لسانَه في دواوينه ببيتٍ يذكرُ فيه أثرَ الدِّينِ في الأخلاقِ.

(4) لويس عوض[48] — من الأدباء الأقباط في مصرَ، مُتَحَمِّسٌ جدًا للشعر الحر و حركة الانتماء، وحتى الآنَ فلا بأس لأنه لا إكراهَ في الدّين ، ولكلِّ إنسانٍ رأيُهُ في الأدب.

و لكنْ ما رأيُ القارئ في هذه الواقعة الأخيرة التي كشَفَتْ مِنْ لويس عوض أمورًا لا نُعَلِّقُ عليها، و لكنْ نُهْديهَا لِعُشَّاق فكرِه الثقافي والأدبي في كلِّ بلدٍ عربيٍّ، آمن أدباؤُه بلويس عوض رَدْحًا مِنَ الزَّمان .

نشرتْ جريدةُ الجزيرة في صفحة أدب وثقافة من عددهَا الصَّادر يومَ الثلاثاء العَاشر مِنْ ربيع الأوَّل سنة 1402 هـ مُلخَصًّا لكتابٍ أَلَّفهُ الصَّحَفِيُّ الإسرائيلي موسى ايلمون بعنوان (رحلة إلى مصر) وموسى ايلمون صهيوني له ماضٍ في الإرهاب، وتمزيق فلسطينَ، فقدْ كانَ عامَ 1948 ضابطا في الجيش الإسرائيلي يمارسُ الذّبحَ والإرهاب كغَيْرِه مِنَ المُجرمينَ.

و قدْ أوردتِ الجزيرةُ في هذا المُلخَّص تصريحًا للويس عوض، أُسَجِّلُهُ كمَا أوردَه الإرهابيُّ الصّهيوني، وكما نَقلتهُ الجزيرةُ من كتابه.. يقولُ لويس عوض (أعتقدُ أنَّ اللِّقاءَ المُتجَدِّدَ بَيْنَ المصريين و الاسرائيليينَ سَيَخْلُقُ وَضْعًا ثقافيًا مُثيرًا للاهتمام، وَكمْ أتمنَّى أنْ يَحْدُثَ ذلك مثلمَا حَدَث قديما قبل خُروج اليهودِ مِنْ مِصْرَ، ثم يَمْضِي الخواجة لويس فيقولُ: إنَّ مصْرَ يَجبُ أنْ تَنفرِدَ حَضاريًّا، ولذلك فعليهَا ألا تتجهَ شَرْقًا إلى دمَشْقَ أو بَغْدَادَ، ولكنْ إلى الشَّمَالِ و الغَرْبِ حيثُ أوربا، ويقولُ لويس: إنني لسْتُ قوْميًا، وأفتَخِرُ بأنَّني علمَانّي). أيْ أنَّ الرَّجُلَ لا يَدينُ بأيِّ دين، وبالمُناسَبَة فقدْ ذكرَ ايلمون أسماءَ أدَبَاءِ مِصْرِيِّينَ آخرينَ، تسَابقوا كلهُم إلى التقرُّبِ من (المسمّاة إسرائيل)[49]. إن عبارات

لويس عوض مَزيجٌ منْ نُكرَان الجميل، لأنَّ لويس عوض لم يَرْعَ حَقّاً للعربِ الذي يَنْتَمي هُوَ إليهم، والى لغَتهم وأدبهم... وَيُعَدُّ صِدْقًا أوْ زُورًا من أعلام أدَبَائهم.

(5) سعيد عقل[50] شاعرٌ ماروني بَنَى كُلَّ مَجْدِه وشُهرَتِه على الأدَبِ العربيّ حتّى لَقَد اجتمعَ نَفرٌ منَ النُّقادِ والشُّعرَاءِ قبْلَ وقتٍ ليْس ببَعيد، وبَايعوا سَعيد عقل أميرًا للشُّعَرَاء، وهُو اللَّقَبُ الذي أحْرَزَه شوقي حينَ طبقَ شِعْرُه الآفاقَ، وكردٌّ لجميل الأدَبِ العربيِّ الذي رَقَى على كتفَيه... سعيد عقل أعْلنَ الرَّجُلُ بعدَ بَيْعَته بوقتٍ قَصير أنَّ اللغَةَ الفُصْحَى لم تَعُدْ تَفي بالتعْبير عَن المشَاعر، ولابُدَّ أنْ نَستَبْدِلَ بهَا اللهجاتِ العاميَّة، و تُستَبْدَلُ بحرُوفهَا الحُروفَ اللاتينيَّةَ، وكتطبيقٍ عَمَليّ للفكرة الخبيثة، طلع عَلَيْنَا أميرُ الشُّعَرَاءِ الجاحدِ الكنُودِ بديوان سَمَّاهُ (يارا)، نَظمَ قصائدَه العربيَّة، ولكنَّهُ كتَبَهُ بحرُوفٍ لاتينية بُحُجَّة أنْ الإملاءَ العربيَّ مُشْكلةٌ ، فَكلمَةُ — هذا) ليْسَ لهَا ألفٌ، وكلمة (حضَرُوا) لهَا ألفٌ لا تلفظ، و الحقُّ أنَّ هذا ليسَ هُو السَّبَبُ، ولكنْ وراءَ الأمر نَعْرةٌ فينيقية، وحِقدًا دفيناً، قُلْتُ: (قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكُونَ)[51].

الصَّنَمُ الغربي: يقول الشّاعرُ عقيلان[52] — رَحْمَةُ الله عَلَيْه — : و أخيراً لا بُدَّ أن أكشفَ وجهَ الصَّنَمِ الغربي الذي طافَ منْ حَوْله كلُّ الرُّوادِ الأوائل منَ الشِّعْر الحُرِّ لأزيحَ عَنْ وَجْهه قِنَاعَ الغُمُوضِ، وَ أُجَلِّي حقيقتَه بالوقائع، ألاَ وهو ت.س. إليوت T.S.Eliot، وهو أكثرُ شُعَرَاءِ الغَرب تأثيرًا في شُعَرائنا المُعاصرينَ العرب من دُعاة الشِّعر المنثور، فقدْ سبَّح أُدَبَاؤُنَا بحَمْده، واتَّخذُوا انتاجَه فوقَ النقاش والتمحيص، حتى لا تكادَ تسمعُ مُحَاضِرًا في النَّقد إلا ويجعلُ لازمةَ كلامه: قال الأستاذ ت.س. إليوت... وتُطالعُ في الكتُبِ سيرةَ نازك و البياتي و السّيّاب وحجازي و عبد الصبور و أدونيس...

فَتُطَالِعُكَ في كلِّ ترجمةٍ لَهُم: (لقدْ تأثَّرَ الشَّاعِرُ في أدَبِه بالشَّاعر ت.س. إليوت تأثرا طبعَ إنتاجَه هذا الأستاذُ العملاقُ).

وَ هُنا أرَى لزامًا أنْ أسرُدَ بعضَ الحقائق عَنْ العِمْلاق ، وهي حَقائقُ نشرَ مُعْظمَهَا أُسْتاذُنَا عميدُ الأدبِ العربيِّ في السُّودانِ الدكتور عَبْدُ الله الطيب، وكشفَ عَمَّا كانَ يتَحلّى به اليوت من استعلاءٍ مُتغطرسٍ، وتعَصُّبٍ صَليبيّ، و ولوع بوثنية اليونان و الرومان، و إغفالٍ مُريبٍ لشأنِ العَربِ والمسلمينَ، وهيَ تتلخصُ فيمَا يلي:

ا- هَذَا الشَّاعِرُ أمريكيُّ النَّشأةِ و التَّعليم، بريطانيُّ الجنسيَة، وقد تخرَّجَ من جامعة هارفرد عَلى يد أستاذ يهوديٍّ صهيوني، اعترف اليوت بأنَّهُ كان أستاذه العلمّي الرُّوحي معًا، كانَ ذلك الرَّجُلُ أديبًا يهوديا مُتَعَصِّبًا ليهوديته، اسمه عزرا باوند izra pound من يهودِ أمريكا، وهذا اليهوديُّ هو الذي نَشَرَ أوَّلَ إنتاج لاليوت في هالة من الدِّعَايَة الهائلة، ألاَ وهو قَصيدَتُه التي عنوانها the waste land الأرض المقفرة، وقدْ سَلَّطَ عليها من الأضْواءِ ما جَذَب للشَّاعِر الأنظارَ وملأ به وسائلَ الإعلام.

ب- الرجل كاثوليكي مُتعَصِّبٌ، أعْمَتْ الصَّليبيَّةُ بصيرتَه، فقدْ لُوحظَ أنَّهُ في كلِّ إنتاجه، وفي كلِّ إشاراته الأدبية لم يذكر العربَ ولا أدَبَهم، في حين ذكرَ كلَّ آدابِ الدُّنيَا قديمَهَا وَ حَديثهَا مَع أنَّ الرّجلَ كانَ مُطلعًا على روائعِ الأدبِ العربيِّ، كما أثبتَ ذلك الدكتورُ عبد الله الطيّب.

ج- بَلغَ الشَّاعِرُ هَذا قِمَّةَ شُهْرَته في أوْج قوَّةِ المحافل الماسونيَّة، و في عَصْرٍ لم تكنْ الدِّعايَةُ تبْرُزُ فيهِ إلا مَنْ ترضَى عنه الصَّهيونيَّةُ و المحافلُ الماسونيَّةُ، و هيَ التي ومَا تزالُ مِنْ أقوى أعْمِدَةِ الصَّهايَنَة، ففي السَّنَة التي أُقيمتْ فيها دَولةُ اليهودِ الغاصبينَ على أرْض فلسطينَ، و هي سَنَةُ 1948 نالَ اليوت جائزةَ نوبل، تلكَ الجائزةُ التي أثبتَت الوقائعُ والأحْدَاثُ أنَّهَا

تَخْضَعُ للنفوذِ الصَّهْيوني، ولا تُمْنَحُ إلا لِمَنْ يَرْضَى عَنْهُ اليهودُ، حتى لقدْ حُجِبَتْ منذ انشائها عَن الأدَبَاءِ والمفكرينَ والسَّاسَة، وَلَمْ تُمْنَحْ عَبْرَ تاريخها إلا لعربيٍّ واحد بَيْنَهُ وبينَ الإرهابيِّ المجرم مناحيم بيجين بطل مَذبَحَة دَيْرَ يَسينَ.

وَ إلى هُنَا أَضْرِبُ صَفْحاً عَنْ ذِكْرِ أَسْمَاءٍ أُخْرَى مِنْ أَقْطَابِ دعوةِ الشّعر (الحُرّ) لأنَّهُم كثيرونَ جداً ، تَضيقُ بِذِكْرِهِم الصَّفَحاتُ و تختنقُ ، وَ حَسبُك من شرٍّ سَمَاعُهُ.

حقّاً حَسْبُنَا منْ شَرٍّ سَمَاعُهُ ، وَ كَفَانَا مِنْ تُرَّهَاتٍ كُلِّهَا جنايةٌ.

وَ حُقَّ للشَّاعرِ عُقَيْلانَ ، وَ حُقَّ لكُلٍّ منَّا أَنْ يَضْرِبَ صَفْحاً عَنْ ذِكْرِ زَبَانِيَةِ الشَّعْرِ الحُرِّ وَ تَفَرُّعَاتِه ، بل هُوَ الشَّرُّ المُرُّ مَع سَلْبِيَّاتِه : فَهُمْ مَهْمَا تَعَدَّدَ تَنَوُّعُهُم ، وَ مَهْمَا تَنَوَّعَتْ مَنابعُهُم ، وَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ مَناهجُهم ، فالكُلُّ يَصُبُّ فِي مُسْتَنْقَعٍ وَاحدٍ ، مَضْمُونُهُ وَ مُحْتَواهُ الإباحَةُ، وَ هَدْمُ الأخلاقِ. و الخروجُ عَلَى إيجابيَّاتِ المجتمعِ، و المَسَاسُ بالقرآنِ الكريمِ العظيمِ.

إنَّ أدعياءَ الشَّعْرِ الحُرِّ – وَ مَا هَذْرُهُم بِشِعْرٍ ، وَ لاَ هُمْ بِشُعَراء – يُريدُونَ المَسَاسَ بالعربيَّة ، لُغَةِ القرآنِ الكريمِ. لذلكَ دَعَوا وَ لا يزالونَ فِي دَعَوَاتِهم – و إنْ ضَعُفَتْ الآنَ ، وَ تَقَهْقَرَتْ و للهِ الحمدُ – إلى اتّباعِ اللَّهجات ، وَ إثَارَةِ النَّعَرَاتِ ، لإيجادِ الفُرْقَةِ فِي اللّسانِ العربيِّ الأبيِّ الفصيحِ الواحد. حتَّى تَتَعَدَّدَ لَدَيْهُمُ اللَّهَجاتُ وَ تُصْبِحُ بالعَشَرات ، و أنَّها يَعْتَمِدُونَهَا على أنَّهَا هي اللُّغَاتُ ، و تُصْبِحُ العربيَّةُ الفُصْحى مُحَنَّطَةً كاللُّغَاتِ القديمة ، وَ حِينَهَا يَصِلُونَ إلى أَهْدافِهم التَّدْمِيريَّة الموبوءة ، وَ مَقَاصِدِهم التخريبيَّة المشبوهة.

وَ أنَّى لُهم ذلكَ ، و قدْ نَسوا أو تناسوا (قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)[53] دواما، أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى الذي أَنْزَلَ القُرْآنَ الكريمَ (بِلِسَانٍ عربيٍّ مُبِينٍ)[54] أَخَذَ عَهْداً عَلَى نَفْسِهِ – وَ منْ أَصْدَقَ منَ اللهِ عَهْداً وَ قِيلاً – بِحِفْظِ هَذِهِ اللُّغَةِ عَبْرَ حِفْظِ القرآنِ الكريمِ.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[55].

فَلْيَحْسَأ الآنَ و دواما، مَنْ أراد المسَاسَ بلُغَةِ القرآنِ الكريمِ، مَهْمَا كانَ مَنْبَعُ ذاكَ الدَّعيُّ الزَّنيمُ مِنْ دِمَنِ الثَّرى، و أيًّا كَانَ مَصَبُّهُ حيثُ مزَابلُ اللاَّشعْرِ، و حُمَّامَاتُ اللاَّدب.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِم و يَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[56].

تلكَ هي بعضُ النتائجِ الهامَّةِ التي توصّل إليها ، و الحقائقِ الثَّابتَةِ التي أَثْبَتَها الشَّاعرُ عُقَيْلاَنَ في كتابه جنَايَةِ الشِّعْرِ الحُرِّ.

أَرْجُو من اللهِ أن يَفيدَ القارئُ العربيُّ منْهَا أَيَّمَا إفَادَة ، و أَنْ تكونَ مَشَاعِلَ عَلى الطَّريقِ لِكُلِّ أديبٍ ناشئٍ و غيره. تَحْفَظُهُ من الزَّلَلِ، و تقيه العَثَرات، و تَمْنَعُهُ مِنَ السُّقُوطِ في شِباكِ التَّقْليدِ الأَعْمَى.

أعمَى اللهُ قُلُوبَ أعداءِ اللُّغَةِ العربيَّة ؛ لُغَةِ القرآنِ الكريمِ العظيمِ ، إنْ لم يَهْتَدُوا إلى جَادَّةِ الصَّوابِ.

"الحَمْدُ للهِ الَّذي هَدَانَا لِهَذا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ"[57].

(وَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)[58]

الإحالات

[1]- عرض و نقد و موازنة : أ.د. رضوان محمد حسين النجار

أستاذ مميَّز للتعليم العالي و البحث العلمي – قسم اللغة و الأدب العربي

[2]- قسَّمْتُ القراءةَ في كتابِ : جناية الشعر الحر إلى قسمين رئيسين، و ذلك اتماماً للفائدة، و اكتمالاً للقراءة ؛ و التّحليل و العرض، ثم النقد و الموازنة.

و القسمان هما : القسم الأوّل : الجناية و يا لها من جناية (هذا البحث مدار الحديث) .

القسم الثاني : جنايات الجناية.

[3]- مؤلّف الكتاب : الشاعر أحمد فرح عقيلان

من رجالات العلم في مدينة الفالوجة بفلسطين . هاجر مُرْغماً من طرف الاحتلال الاستدماري اليهودي الصهيوني إلى جزيرة العرب. له ديوان شعر ، توفّاه الله تعالى قبل بضع سنين (رحـــمه الله تعالى و غفر له ، و جزاه عن العربية كلّ خير).

[4]- لا يقصد القائل الشعرَ في العصر الحديث بعامة ، و إنّما المقصود محصور في مسميات لا علاقة لها بالشعر العربي الأصيل السليم ، و إنّما يتعلّق المقصود بألوان مشوهة مرضى من الكلام ، و عليلة من المسميات ، كَمُسَمّى : الشعر الحُر و قيل الحُر ... الشعر المنثور ... الشعر المهذور ... الشعر المحرور ... الشهر المهرور ... الشعر المرسل ... شعر الهذيذ ... شعر التُّرتُرْ ... شعر التفعيلة ... شعر البحور المركبّة ... شعر الفوضى ... إلخ من ألوان القول.

[5]- سورة آلِ عِمْرَانَ – ختام الآيتين الكريمتين رقم 122 و 160.

سورة المائدة – ختام الآية الكريمة رقم 11 سورة التَّوبَة (براءَة) – ختام الآية الكريمة رقم 51

سورة إبراهيمَ – ختام الآية الكريمة رقم 11 سورة المُجَادِلة – ختام الآية الكريمة رقم 10

سورة التّغابُن – ختام الآية الكريمة رقم 13

[6]- سورة ابراهيم – ختام الآية الكريمة رقم 12

[7]- جناية : سيكون الرمز في الهامش من هذا البحث بمشيئة الله تعالى لكتاب جناية الشعر الحر بلفظ : الجناية.

[8]- جناية الشعر الحر (الجناية) - ص 11 و 12

[9]- الْمُنْصفَاتُ : أَنْ يَنْطقَ الشَّاعرُ بالحقيقة له و لقبيلته أَمْ عَلَيْه و عليها.

و قد يُقرُّ بالغَلَبَة و النَّصْر لأعدائه و خصومه عَلَيْه و على قبيلته.

قال خِدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ منْ قَصيدة له يحكي فيها بصدْقٍ و أمانة حوادثَ يَوْمِ شَمْطَةَ و هو اليوم الثاني من أيام الفجار الثاني في الجاهلية ، و هي أيّامٌ كانت بين قريش من جهة ، و بين هوازن من جهة أخرى ، و الشَّاعرُ من بني عامرٍ و بنو عامرٍ من هوازنَ.

و قد تكلّم الشاعرُ و أخبرَ بالحوادث و أسماء القَادَة و أنصفَ الأعداءَ في قوله :

فَأَبْلغْ إنْ عَرَضْتَ به هِشَاماً ... و عَبْدَ اللهِ أَبْلغْ و الوَليدَا

أولئكَ إنْ يكنْ في النَّاسِ خَيْرٌ ... فإنَّ لَدَيْهِمْ حَسَباً وَجُوداَ

هُمْ خَيْرُ المعاشرِ منْ قُرَيْشٍ ... وَ أَوَّارهَا إذَا قَدَحَتْ زُنُودَا

راجع لنا : خداش بن زهير العامري ، حياته و شعره - مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق – ص 358 و ما بعدها - و أيضاً : شعر خداش بن زهير – مجلة اللغة العربية – الرياض – ص 553 و ما بعدها.

[10]- الجناية : ص 12.

[11]- العدد 24 – السنة السادسة.

[12]- الجناية – ص 13.

[13]- الجناية – ص 13.

[14]- الجناية – ص 14.

[15]- الجناية – ص 14.

[16]- الجناية – ص 14.

[17]- الجناية – ص 15.

[18]- الجناية – ص 15.

[19]- الجناية – ص 15 - 16.

[20]- الجناية – ص 16 - 17.

[21]- الجناية – ص 17 - 18.

[22]- الجناية – ص 18 - 19.

[23]- الجناية – ص 19.

[24]- سورة الذّاريات – بعض الآية الكريمة رقم 55.

[25]- جناية الشعر الحر – ص 20 - 24.

[26]- الجناية – ص 24.

[27]- راجع كتابنا : المنظومة في العروض – ص 325 و ما بعدها – المقصد التاسع و العشرون.

[28]- راجع كتابنا : العروض العربي – ص 49 و ما بعدها (القسم الثالث)

[29]- المنظومة في العروض – المقصد الثامن عشر (البحر الرجز) – ص 223 و ما بعدها.
و أيضاً راجع كتابنا : العروض العربي (القسم الثالث) – ص 50
[30]- رضوان النجار: مجلة المشكاة - القرآن و السنة يحددان ماهية الشعر العربي– القسم المخطوط – ص 11.
[31]- الجناية – ص 24.
[32]- الجناية – ص 24 - 25.
[33]- الجناية – ص 26 - 27.
[34]- الجناية – الصفحات نفسها
[35]- يقولون : قصيدة شعر,
[36]- سُورَةُ الحاقّة – الآية الكريمة رقم 41.
[37]- سورة يس – الآية الكريمة رقم 69
[38]- الجناية – ص 28 و ما بعدها.
[39]- الجناية – ص 31 و ما بعدها.
[40]- في الأصل : سعودي
[41]- الجناية – ص 35.
[42]- الجناية – ص 36.
[43]- الجناية – ص 37.
[44]- دعني ألتقط : في الأصل : (و أعود إلى نقد أدونيس و شعره فألتقط).
[45]- سورة البقرة - بعض الآية الكريمة رقم 156
[46]- إن مذهب اللامنتمي كما عرّفه الأستاذ ويلسون مؤلف كتاب (اللامنتمي) يتلخص في (أن هذا العالم مليء بالمتناقضات ولا علاج لهذه الحال إلا بالثورة و الغضب وعدم الانتماء إلى أية قيمة أخلاقية من القيم الموروثة، بل لابد من مواجهة العالم بكل مشاعر الحقد والكراهية).
[47]- الجناية – ص 45 و ما بعدها.
[48]- المصدر نفسه و الصفحة عينها.
[49]- العدو الصهيوني اليهودي المحتلّ لفلسطين
[50]- الجناية – ص 47
[51]- سورة التّوبة (براءة) – ختام الآية الكريمة رقم 30 سورة المنافقون – ختام الآية الكريمة 04
[52]- الجناية – ص 48 – 51
[53]- سورة التوبة (براءة)– بعض الآية الكريمة رقم 30 سورة المنافقون– بعض الآية الكريمة 04
[54]- سورة الشّعراء – الآية الكريمة رقم 195
[55]- سورة الحجْر – الآية الكريمة رقم 09
[56]- سورة التّوبة (براءة) ـ الآية الكريمة رقم 32
[57]-سورة الأعراف-بعض الآية الكريمة 43
[58]- سورة الأنعام – ختام الآية الكريمة رقم 45 سورة الصّافّات – آية ختام السورة الكريمة 182